نيكوس كازانتزاكيس

زوربا اليوناني

رواية

ترجمة

صبحي سلامة

الكتاب:زوربا اليوناني (رواية)
الكاتب:نيكوس كازانتزاكيس
ترجمة : صبحي سلامة
الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)
٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

كازانتزاكيس، نيكوس
زوربا اليوناني (رواية) / نيكوسكازانتزاكيس، ترجمة : صبحي سلامة
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٢٠١ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ٩ – ٩٨ – ٦٨١٨– ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٨٩٢٤ / ٢٠٢٠

زوربا اليوناني

(رواية)

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

"زوربا اليوناني" رواية فذة للكاتب "نيكوس كازانتزاكيس" تدور أحداثها عن قصة رجل مثقف، اسمه باسيل، غارق في الكتب يلتقي مصادفة برجل أُميّ مدرسته الوحيدة هي الحياة وتجاربه فيها ، وسرعان ما تنشأ صداقة بين الرجلين ويتعلم فيها المثقف باسيل – الذي ورث مالاً من أبيه – الكثير من زوربا عن الحياة وعن حبها وفن عيشها.

زوربا، شخصية مجنونة بحق.. يبتسم بسخرية حين يريد أن يُخفي انفعاله، ويسخرُ باسماً من صديقه المثقف ويصفهُ بقارض الكتب، وينتظرُ دون أمل أن يترك عادة مضغ الورق والتلوث بالحبر.. كما أنه شُجاع لا يُخيفه شيء سوى الشيخوخة، ولا يهمه الفرح ولا الحزن، كل ما يهمه هل هو حيٌ أم ميت...؟ إنسان مُدهش، مُغامر، سندباد بري، لم يكن مُتعلماً، إنما كان حكيماً، تلك الحكمة التي تنساب كالنهر الرقراق في ليلة قمرية دافئة، وكان شخصاً مفعماً بحيوية وقوة وحس متدفق.

زوربا هي شخصية حقيقية قابلها نيكوس في إحدى أسفاره، وقد أعجب به إعجاباً شديداً، فكتب رواية باسمه ، واللافت للنظر في هذه الرواية ، هو قدرة الكاتب على وصف شخصية زوربا بشكل مطوّل ومُفصّل وعميق، حتى إنك تشعر لوهلة أن زوربا هو الشخص الأعظم في هذا الكون. والمميز في زوربا هو أنه يُحب الحياة بكل أشكالها، لا يذكر الحزن، بل يذكر الفرح دائماً في لحظات حزنه الشديد، أو سعادته الشديدة، ويرقص رقصته المشهور، (رقصة زوربا).. في تلك الرقصة يقفز إلى الأعلى لأمتار ويستغل كل ما هو حوله من بشر أو من أدوات وجمادات، ويروي شخصية زوربا، شخص لقبه "الرئيس" وهو شخص يوناني يرغب في استثمار أمواله في مشروع ما، فيُقنعه زوربا بأنه يستطيع استثمار أمواله في منجم

للفحم، ولكن محاولات زوربا لصناعة مصعد ينقل الفحم من مكان لمكان تبوء بالفشل، ولكن زوربا المُفعم بالحياة لا ييأس ، ويحتاج لأدوات من المدينة، فيأخذ كل أموال "الرئيس" ويذهب إلى المدينة، فيشعر بالتعب، يدخل إحدى الحانات، فتتقرب منه "غانية" فيرفضها، فتُشعره بانتقاص الرجولة، ولكن زوربا المفعم بالرجولة لا يقبل هذا التصرف، ويصرف كل أمواله عليها، ويكتب رسالة إلى "الرئيس" أنه "دافع عن كل الرجولة في العالم".

زوربا شخص أمّي لا يعترف بالكُتب، وبالمقابل "الرئيس" صديقه شخص مليء بالكتب، ولطالما سخر زوربا من تلك الكتب، ويقول: "كتبك تلك أبصق عليها، فليس كل ما هو موجود، موجود في كتبك".. ويتضح من الرواية أن كليهما يُمثلان قطبين للتناقض، ورغم ذلك التناقض فقد كان يجمعهما حب عميق وصداقة شفافة وصادقة. لقد جمعت بين هذين الشخصين المتناقضين فكرياً وعقائدياً وسلوكياً علاقة وشيجة قوامها لا المصلحة أو تبادل المنفعة بقدر ما هي علاقة تحكمها التكاملية ، فكل منهما رأى في الآخر مُكملاً لنفسه، وكأن كُلاً منهما وجد في الآخر نصفه المفقود أو نصفه الذي يبحث عنه، وإن كان من الواضح أن قوة تأثر الراوي المُتمثل بشخص الإنسان المثالي كانت أكبر من قوة تأثر زوربا به.

نقل المخرج اليوناني مايكل كاكويانيس الرواية في ستينيات القرن الماضي إلى فيلم هوليودي، وقام ببطولته أنتوني كوين، وإيرين باباس، وآلانبيتس. فيما أعد له الموسيقى الموسيقار اليوناني ميكيسثيودوراكيس، الذي ألف عام ١٩٨٨م "باليه" بعنوان "أليكسيس زوربا"، وتم تقديمه في المرة الأولى بفيرونا الإيطالية.

***

نيكوس كازانتزاكيس ولد عام ١٨٨٣م وتوفي عام ١٩٥٧م، وهو كاتب وفيلسوف يوناني، اشتهر عالمياً بعد عام ١٩٦٤ م حيث أنتج فيلم "زوربا اليوناني" للمخرج مايكل كاكويانيس والمأخوذ عن روايته. وتجددت شهرته عام ١٩٨٨ م

حيث أنتج فيلم "الإغواء الآخر للمسيح" للمخرج مارتن سكورزيزي، وهو مأخوذ عن رواية له. عندما ولد في هيراكليون، لم تكن كريت قد انضمت بعد إلى الدولة اليونانية الحديثة، وكانت لا تزال تحت حكم الإمبراطورية العثمانية، ودرس القانون في جامعة أثينا، ثُم ذهب إلى باريس في عام ١٩٠٧م لدراسة الفلسفة.

بين عام ١٩٢٢ م ووفاته في عام ١٩٥٧ تغرب في باريس وبرلين، وإيطاليا، وروسيا، وإسبانيا، ثم في وقت لاحق في قبرص، مصر، جبل سيناء، تشيكوسلوفاكيا، نيس، الصين، واليابان. أثناء وجوده في برلين – حيث كانت الأوضاع السياسية مُتفجرة – اكتشف الشيوعية، وأصبح مُعجباً بفلاديمير لينين، وزار الاتحاد السوفييتي. وشهد صعود جوزيف ستالين، وأصيب بخيبة أمل مع الشيوعية على النمط السوفييتي في عام ١٩٤٥، أصبح زعيم حزب صغير يساري غير شيوعي، ودخل الحكومة اليونانية وزيراً بدون حقيبة. واستقال من هذا المنصب في العام التالي. في عام ١٩٤٦ رشحته جمعية الكتاب اليونانيين للحصول على جائزة نوبل للآداب. في عام ١٩٥٧، خسر الجائزة لألبير كامو بفارق صوت واحد.

دُفِنَ على الجدار المحيط بمدينة هيراكليون بالقرب من بوابة خانيا، لأن الكنيسة الأرثوذكسية رفضت دفنه في مقبرتها ، وقد كتب على قبره "لا آمل في شيء. لا أخشى شيئاً. أنا حر".

المترجم

الفصل الأول

كنت جالساً في زاوية المقهى من شدة البرد، طلبت كأسا ثانيا من الشراب، شعرت بالنعاس لكني قاومت الرغبة في النوم والتعب، وجلست أنظر من خلال الزجاج إلى الميناء الذي بدأ يضج بالحركة وبصفارات البواخر، وبصياح سائقي العربات.. كانت عيناي عالقتين في مقدمة باخرة سوداء كبيرة، كانت لا تزال مغمورة بظلام الليل القاتم، وكانت السماء تمطر، وباستطاعتي مشاهدة خيوط الماء المنهمر تربط السماء بالوحل.. نظرت إلى الباخرة السوداء، وتجسدت كآبة الذكريات الماضية، ودفعت الأمطار بصورة وجه صديقي الكبير، هل كانت السنة الماضية؟ في عالم آخر؟ البارحة؟ متى كانت حين نزلت إلى هذا المرفأ بالذات لأقول له وداعاً؟ لقد كانت السماء ممطرة ذلك الصباح، أيضا، وفي تلك المرة كان قلبي مثقلا تماما شأنه شأن حالتي اليوم.

كم هي مؤلمة ساعة الفراق البطيئة، خاصة فراق الأصدقاء العظام، فالأفضل الانقطاع دفعة واحدة، والعودة إلى الوحدة.. هذا هو الجو الطبيعي للرجل، ولكن في ذلك الصباح الممطر لم يكن باستطاعتي ترك صديقي (وقد علمت لماذا، فيما بعد، ولكن للأسف كان ذلك بعد فوات الأوان)، لقد صعدت معه إلى ظهر المركب ودخلتُ إلى مقصورته الملأى بالحقائب المبعثرة، كأنني كنت راغبا في أن أدون ملامحه في مخيلتي، عينيه المُضيئتين بالأزرق، وجهه الفني، وملامحه الذكية، وفوق كل ذلك يديه الأرستقراطيتين وأصابعهما الطويلة النحيلة. وحين فاجأني وأنا أحدق به بشوق، ونظر إليَّ وقد ارتسمت على وجهه تلك الابتسامة الساخرة التي يلجأ إليها حين يُريد إن يُخفي انفعاله.. سألني مبتسما ساخراً: "إلى متى؟"

- ماذا تعني بـ إلى متى؟

- إلى متى ستبقى على عادة مضغ الورق والتلوث بالحبر؟ لماذا لا تأتِ معي بعيداً في القوقاز هناك الألوف من أبناء جنسنا في خطر عظيم، تعال لننقذهم..

ثُم راح يضحك كأنه يهزأ من نُبله، قال:

- ربما، لن نقدر على مساعدتهم، ولكن ألم تكن تعظ "إن الطريقة الوحيدة في تخليص نفسك هي في مساعدة الآخرين"؟ حسنا، أيها المُعلم، إلى الأمام، وأنت شيء ممتاز أن نُلقي المواعظ، ولكن لماذا لا تأتِ معي ؟!

ولم أجبه، وفكرت بأراضي الشرق الساحرة، وأم الآلهة العجوز، وصراخ بروميثيوس المُسمر إلى الصخور، وهناك على هذه الصخور نفسها كان عِرقنا مُستمراً، لقد كان ينادي ويصرخ!! لقد كان ينادي طالبا المعونة من أبنائه، وكنت أسمع النداء كأن الألم هو حلم والحياة هي مأساة محيقة، يثبت فيها من يأخذ حصته من العمل في مسرح الحياة.

وبدون أن ينتظر جواباً مني نهض صديقي، وصفرت الباخرة مُعلنة عن الإقلاع للمرة الثالثة ومدّ يده إليَّ مُحاولا إخفاء انفعاله بابتسامته الساخرة، ثم قال:

- إلى الملتقى يا عثّ الكتب!

وارتجف صوته، وقد شعر بالخجل لأنه لم يتمكن من السيطرة على عواطفه، فقد كانت الكلمات الرقيقة والحركات المضطربة تبدو له ضعفا لا يجوز للرجل إن يأخذ بها، نحن الذين كنا مولعين ببعضنا أشد الولع، لم نتبادل أية كلمة من كلمات العطف والمحبة، لقد مثلنا وخدشنا بعضنا بعضا كأننا قطط متوحشة. هو: الذكي، الساخر، المُتمدن، وأنا: الهمجي! لقد تمرن على ضبط النفس وإخفاء كل العواطف تحت ستار السُخرية، بينما كنت أنا أنفجر بضحكتي الوحشية البلهاء.. لقد كنت أحاول دوما أن أخفي انفعالي وعواطفي بكلمة قاسية، لكني شعرت بالخجل، لا،

ليس الخجل بالذات، ولكن سوء التصرف، وأمسكت بيده ولم أقو على تركها، فنظر إليّ مندهشا:

- هل أنت منفعلٌ لهذا الحد؟!

وأجبته بهدوء:

- نعم...

- لماذا؟ ولكن ماذا قلنا الآن؟ ألم نتفق على ذلك منذ سنين؟ ماذا يقول الأحباء اليابانيون، الوجه قناعٌ يبتسم، ولكن ما تحت هذا القناع ليس من شأننا.

- نعم.

أجبته محاولاً جاهداً ألا أورط نفسي بعبارات طويلة، ولم أكن واثقاً من أنني قادر على ضبط صوتي.. ودوى صوت صفارة الباخرة، معلنا طرد الزوار من غرف المسافرين، كان المطر ينهمر خفيفا، وكان الهواء عبقا بكلمات الوداع الرقيقة، القبلات الطويلة، التأوهات والتوصيات اللاهثة الخاطفة، وتهافت الأمهات على الأبناء، والزوجات على الأزواج، والأصدقاء على الأصدقاء، كأنهم سيفارقونهم إلى الأبد، كأن هذا الفرق يعني "الفراق الكبير"، وانطلقت الصفارة من جديد كأنها أجراس الجنائز، فارتعدت!

- اسمع، هل أنت متشائم؟

- نعم.

- هل تؤمن بهذه الهواجس؟

وأجبته بالتأكيد:

- كلا.

- إذن؟

ولم أستمع لكلمته (إذن) تلك، فلم أكن أؤمن بها، ولكن كنت خائفاً.. ورمش صديقي بجفونه مرتين أو ثلاثاً، وحدّق بي مرة أخرى، لقد فهم أنني منفعل وحزين، فتردد في إخفاء اضطرابه بالسخرية والضحك، وقال:

- حسناً! أعطني يدك، إذا قدر لأحدنا أن يجد نفسه في خطر الموت..

وتوقف، كأنه شعر بالخجل، نحن الذين كنا نهزأ من هذه النزوات الميتافيزيقية لسنواتٍ خلت!!، وسألته محاولا أن أحذر:

- حسنا؟!

- لننظر إليها كأنها لعبة، إذا قدر لأحدنا خطر الموت، فليفكر في الآخر بشدة لدرجة إن ينبهه حيثما كان... هل اتفقنا؟!

قال ذلك محاولا أن يضحك لكن الابتسامة جمدت على شفتيه:

- اتفقنا.

وأضاف صديقي مسرعا، خوفا من أن يكون قد أفصح عن عواطفه:

- مع العلم، إنني لا أؤمن إطلاقا بعلم قراءة الأفكار، وما شابه..

طمأنته متمتماً:

- لا بأس، وليكن..

- حسنٌ جداً، والآن لندع الموضوع عند هذا الحد، اتفقنا؟

- اتفقنا.

كانت هذه كلماتنا الأخيرة، وتصافحنا بحرارة، ومشيت مسرعا دون أن أنظر إلى الخلف، كأنني كنتُ مطارداً، وشعرتُ برغبة في إلقاء نظرةٍ أخيرةٍ على صديقي، لكني تمالكتُ نفسي، وقلت: "لا تنظر إلى الخلف! تقدّم!"

كان الضوء ينتشر رويدا رويداً، والصباحان يبدوان متداخلين، وظهر لي وجه

صديقي واضحاً الآن، فهو الذي بقي لمدة طويلة تحت المطر، ويبدو حزيناً ساكناً.. وانفتح الباب ودخل رجلٌ قصير القامة، مُقوّس الساقين، ذو شاربٍ مُتدلٍ، وتعالت أصواتٌ فرِحة:

- أهلاً، كابتن ليموني!

وانتشر الضوء، وأخذ الكابتن مسبحته وراح يطقطق بها بعصبية، بينما انزويتُ أنا في مقعدي محاولاً أن أستعيد تلك الصورة التي كانت تذوب مُبتعدةً عني، لو أتمكن من أن أعيش مرة أخرى هذه اللحظة من الغضب الذي تملكني حين قال صديقي "عث الكتب"!، وتذكرت أن كل القرف من الحياة التي كنت أحياها قد تجسد في هذه الكلمات، كيف تمكّنتُ أنا، الذي كنت أحب الحياة، أن أدفن رأسي بين أكداس الكتب والأوراق الملطخة بالحبر! لقد ساعدني صديقي في ذلك اليوم، يوم الفراق، على الرؤيا بوضوحٍ أكبر، وشعرت بالاطمئنان، والآن بعد إن علمت اسم حزني مصدر شقائي فباستطاعتي التغلب عليه بسهولة، ولم تعد أحزاني متفرقة، فقد تجسدت وأصبحت تحمل اسما، لذلك أصبح بإمكاني مقارعتها بسهولةٍ أكبر.

لقد أثر هذا التعبير علي ودخل في أعماق نفسي، وقد حاولتُ البحث عن حجة لأترك الورق والكتابة وأحيا حياة أكثر مغامرة وحركة، لقد أصبحت مستاءً من حمل هذه الحشرة البائسة مضافة إلى اسمي، وقد سنحت لي الفرصة منذ شهر، فقد استأجرت منجما في جزيرة كريت مواجها لبحر ليبيا، وسأذهب اليوم إلى هذا المنجم القديم لأعيش مع رجال بسطاء، عمال، فلاحين، بعيدا عن جنس "عث الكتب".

وأعددتُ العدة للسفر، كأن هذه الرحلة تخفي وراءها معانٍ كثيرة، فقد عزمت على تغيير منهجي في الحياة، وقلت لنفسي: "لغاية اليوم، لقد شاهدت الظل وكنت مكتفياً به، والآن سأقودك للجسم".

وعندما انتهيت أخيرا، وفي ليلة سفري بينما كنت أقلب أوراقي، عثرت على مخطوطة لم تنته بعد، وأخذتها بيدٍ مشدودة، منذ سنتين كانت الرغبة كامنة في أعماق نفسي، رغبة قوية جامحة، رغبة أشعر بها تتآكل في أحشائي كل لحظة، لقد كانت تنمو وتنضج وترفسني في صدري تطلب أن تخرج إلى الوجود، والآن لم يعد بإمكاني إن أطرحها، لم أعد أجرؤ على ذلك، لقد فات الوقت لهذا الإجهاض النفسي.

وبينما كنت ممسكا بالمخطوطات تلك، ظهر أمامي وجه صديقي الساخر فقلت بصوتٍ مرتفع بعد أن شعرت بألم السخرية:

- سآخذها معي، سآخذها، لا تضحك!!

ولففتُ المخطوطة بعناية وحملتها، وعاد إلى مسمعي صوت الكابتن ليموني، وقورا قاسيا، وأصغيت إلى حديثه الذي كان عن العفاريت التي تسلقت صاري مركبه أثناء العاصفة وراحت تلحسه:

لقد كانت لزجة، وكان الإنسان حين يلمسها يشعر بالنار تحرق يديه، لقد ملست شاربي ونظرت إليها في الظلام وأنا أشع كالعفريت، وكما قلت، لقد طغى البحر على مركبي وأغرق شحنتي من الفحم وبدأ مركبي يميل في هذه اللحظة، ترفق الله العظيم ورأف بي وأرسل صاعقة حطمت أخشاب الأبواب وانزلق الفحم إلى البحر، وخف وزن المركب من حمولته وعاد إلى وضعه السابق، وبذلك أنقذتُ نفسي.

وبينما كنت أصغي باهتمام لما كان يقوله البحار العجوز، شعرتُ بالانزعاج فجأة فرفعتُ رأسي، لست أعلم كيف، لكني شعرت إن عينين اثنتين تحدقان بجمجمة رأسي من الخلف، والتفتّ مسرعاً باتجاه الباب الزجاجي، وقد ومضت في رأسي فكرة مجنونة : سأرى صديقي مرة ثانية! لقد كُنتُ مهيئاً لاستقبال المعجزة، لكنها لم تحصل، فقد رأيتُ رجلا غريبا يبلغ من العمر ستين عاما، طويل القامة،

نحيف الجسم، عيناه جاحظتان، وقد ألصق بأنفه على زجاج الباب وهو ينظر إليّ، وكان يحمل صرّة صغيرة تحت ذراعه.

وقد أثارتني فيه نظرته المتشوقة، وعيناه الحادتان المتوقدتان، أو هكذا بدتا لي على كل حال، وما إن تقابلت نظراتنا، وتأكد أنني الشخص الذي يبحث عنه، حتى فتح الباب بقوة واندفع إلى الداخل ماراً بين الطاولات بخطى سريعة، وتقدم نحوي ووقف قرب طاولتي ثم قال:

- هل أنت مسافر؟ وإلى أين؟

- مسافر إلى كريت، ولكن لماذا تسأل؟

- هل تأخذني معك؟

ونظرت إليه باهتمام، كانت خدوده مجوفة، وفكه صلبٌ قاسٍ، ووجنتاه ناتئتان، وشعره الرمادي مجعد وعيناه متوقدتان.

- لماذا؟ وماذا أفعل بك؟

وهز كتفيه وقال:

- لماذا، لماذا؟ ألا يستطيع المرء أن يفعل شيئا دون لماذا؟ للاشيء، لأن المرء يريد ذلك! خذني معك كطباخ مثلا، إن باستطاعتي أن أطبخ حساءً لم تذق مثله في حياتك.

ورحتُ أحدق به وأنا أضحك، فقد أعجبني هذا المخلوق كما أعجبني الحساء، فقلت في نفسي أنه ليس ثمة ضرر في أن آخذه معي، فيبدو أنه قد جاب البحار طويلاً، فهو أشبه بالسندباد البحري، وقد أعجبني !

قال لي وهو يهز رأسه الضخم:

- وبماذا تفكر؟ هل توازن الأمر بنفسك؟ هيا أيها الصديق اعتمد وقرر لنفسك.

- اجلس الآن وخذ قدحا من الشراب.

- حسناً، ولكن كأسا من "الروم "ينفعني أكثر.

وسألته بعد أن تناول كأس الروم وراح يتذوقه بهدوء:

- ما نوع العمل الذي تتقنه؟

- كل الأنواع، بالأرجل والأيدي والرأس، جميعهم!

- أين كنت تعمل في السابق؟

- في منجم، فأنا خبيرٌ في عمل المناجم، كما أنني خبير في المعادن، أنا أعرف كيف أجد العروق، أحفر الأنفاق، وأهبط إلى الحفر العميقة دون أن أخاف، لقد كنت أعمل جيدا فقد كنت رئيسا على العمال، وكنت لا أشكو من شيء، ولكن الشيطان تدخل في عملي، فيوم السبت الماضي جاء صاحب المنجم ليفتش بين العمال، فأمسكت به وأوسعته ضربا، هكذا دون أن أكون سكراناً.

- ولكن لماذا؟ وماذا فعل لك؟

- لي؟.. لا شيء على الإطلاق، فقد كانت المرة الأولى التي أراه فيها، فالمسكين قد وزع علينا السجائر أيضاً.

- حسنا؟

- أوه، مالك تجلس هكذا وتطرح الأسئلة؟ لقد خطر لي ذلك، هذا كل ما في الأمر، تعلم قصة زوجة الطحان؟ حسنا، فلا يمكنك تعلم الإملاء من مؤخرتها، مؤخرة زوجة الطحان، فهذا هو المنطق الإنساني.

فنظرتُ إلى رفيقي الجديد بمزيد من الاهتمام، فقد أعجبني تحليله للأمور للمنطق، ثم سألته:

- وماذا تحمل في صرتك هذه؟.. طعام؟ ملابس؟ أم معدات؟

ورفع صديقي كتفيه ضاحكاً:

- إنك تبدو كثير التعلق، أرجو المعذرة لهذا.

وضرب على صرته بأصابعه الطويلة القاسية وقال:

- كلا، إنها السانتوري.

- السانتوري؟ وهل تعزف عليها؟

- نعم، عندما أكون مفلساً أذهب إلى الحانات ثم أعزف عليها وأنشد بعض الأغاني المقدونية القديمة، ثم أبدأ بجمع النقود من الزبائن في قبعتي، فتمتلئ بعد قليل بالدراهم.

- ما اسمك؟

- أليكسيس زوربا، وفي بعض الأحيان يدعونني "مجرفة الفئران" لأنني طويل القامة وجمجمتي مسطحة وتشبه الكعكة، كما أنني أدعى "مضيّع الوقت" لأنني كنت أبيع البذر المحمص في وقتٍ من الأوقات، وهم يدعونني أيضا "المعفن" لأنني أسبب المشاكل أينما حللت، كل شيء يذهب للكلاب، ولي أيضا أسماء أخرى، ولكنني سأدعها لفرصة ثانية.

- وكيف تعلمت العزف على السانتوري؟

كنت في العشرين، فسمعت السانتوري لأول مرة في إحدى الاحتفالات القروية، هناك عند قدم جبل أوليمب، فبهرت لتوي حين سمعت النغم، وبقيت ثلاثة أيام دون طعام، وسألني والدي رحمه الله "ماذا جرى لك؟"، فقلتُ له أنني أريد أن أتعلم العزف على السانتوري، فقال لي "ألا تخجل من نفسك؟.. هل أنت غجري؟ هل تريد أن تتحول إلى عازف؟ "فأجبته "نعم، أنا أريد أن أتعلم العزف على السانتوري"، وكنت قد ادخرتُ بعض القروش لكي أتزوج حين يحين الوقت، فقد كنت لا أزال فتيا ودم الشباب لا يزال يجري حارا في عروقي، وأريد الزواج، أنا

الغبي المسكين! وهكذا دفعت كل ما ادخرته من مال ثمناً لشراء السانتوري، وهربت إلى سالونيك حيث قابلت رجلاً تركيا يدعى رستم أفندي، وهو مُعلمٌ ماهر للعزف على السانتوري، فقلتُ له "إنني أريد أن أتعلم العزف على السانتوري"، فقال "حسنا، ولكن لماذا ألقيت بنفسك على أقدامي هكذا؟".. "لأني لا أملك مالاً لأدفعه لك". "وأنت مغرم بالسانتوري إلى هذا الحد؟" "نعم". "حسنا، يمكنك البقاء يا ولدي، فأنا لستُ بحاجةٍ إلى مالك".

وبقيتُ عنده سنة أتعلم العزف، وهو لا بد أن يكون قد مات الآن، رحمه الله، وإذا كان الله تعالى يسمح بدخول الكلاب إلى جناته، فلعله يفتح أبواب الجنة لرستم أفندي، ومنذ أن تعلمت العزف على السانتوري حتى أصبحت رجلاً آخر، فعندما أشعر بالحزن، أو حين أكون مفلسا، أعزف على السانتوري فأشعر بالسعادة والانشراح، وعندما أعزف لا أسمع شيئا مما يقولونه لي، وإذا سمعت فلا يمكنني الكلام، ولا فائدة من المحاولة فأنا لا أستطيع ... "

- ولكن لماذا، زوربا؟

- أوه، ألا ترى؟ إنه الهوس المحموم، نعم إنه الهوس.

وفتح باب المقهى من جديد وسمعت هدير البحر، وكانت أيدينا وأرجلنا متجمدة من شدة الصقيع، فانزويت أكثر إلى الركن الدافئ وتلفعت بالمعطف ونعمت بدفء المكان، وقلت في نفسي "إلى أين سأذهب، فأنا في أحسن حالٍ هنا، ليت هذه اللحظة تدوم سنين طويلة"

ونظرت إلى الرجل الغريب أمامي، الذي كان يحدق بي وقلت له:

- حسنا؟ استمر.

وهز زوربا بكتفيه وقال:

- دعك من ذلك، هل تعطيني سيجارة؟

وقدمت له سيجارة، تناولها وأخرج من جيبه قداحة وفتيلة وأشعل السيجارة ثم أغمض عينيه بسرور وارتياح، وسألته:

- متزوج؟

وأجابني غاضباً:

- ألستُ رجلاً؟ ألستُ رجلاً؟ أعني أعمى، شأني شأن الجميع، لقد سقطت على رأسي في الفخ وتزوجت، وأصبحت رب عائلة، وبنيت بيتا، وأصبح عندي أطفال ومشاكل، ولكن شكرا للرب على السانتوري..

- وهل كنت تعزف لتنسى همومك؟

- اسمع، إني أرى أنك لا تستطيع العزف على أية آلة موسيقية، في البيت تكمن كل مشاكلك، الزوجة، الأولاد، ما الذي ستأكله؟ كيف ندبر أمر الملبس؟ ما الذي سيحل بنا؟ يا للجحيم، كلا، لكي تعزف السانتوري يجب أن تكون في حالة جيدة، يجب أن تكون صافياً، فإذا ما رددت زوجتي كلماتها فكيف يمكنني العزف؟ وإذا كان أولادك جائعين يصرخون، حاول عند ذلك أن تعزف على السانتوري، فعقلك يجب أن يكون عند السانتوري، لا عند أشياء أخرى، هل فهمت؟!

- نعم، فهمت، أن زوربا هو الرجل الذي كنت أنشده منذ مدة طويلة دون أن أجده، قلب حي، وفمٌ ضخم شره، ونفس كبيرة قاسية لم تعركها الأيام.

إن معنى كلمات الفن والحب والطهارة والعاطفة، كل هذه المعاني أظهرتها لي تلك الكلمات البسيطة التي تفوه بها هذا الرجل العامل. ونظرت إلى يديه اللتين تستطيعان الإمساك بالمعول والسانتوري، يدان متحجرتان، مشققتان، مشوهتان، وباعتناءٍ بالغ، كأنهما تخلعان ثياب امرأة، فتحت الصرة وسحبت منها السانتوري الذي صقلته السنون، مع حزمة من الأوتار، مضربا بالنحاس والعاج مع شرابة حمراء من الحرير، ثم راحت تلك الأصابع الطويلة تداعبه بعطف كأنها أيدٍ تداعب وجه

امرأة، ثم أعادت وضعه ولفته باعتناء بالغ كأنه جسدٌ محبوب خافت عليه من البرد.

- هذا هو السانتوري العزيز.

تمتم ذلك وهو يضع الصرة باعتناءٍ على الكرسي، وكان البحارة يقرعون الكؤوس ويضحكون، وربت البحار العجوز على كتف الكابتن ليموني وهو يقول:

- قل الحقيقة يا كابتن، ألست خائفا؟ إن الله أعلم بعدد الشموع التي نذرتها للقديس نيقولا.

وقطّب الكابتن حاجبيه الضخمين:

- أقسم لكم، إنني عندما رأيت الموت يقترب مني لم أفكر بالقديسة العذراء، ولا بالقديس نيقولا، بل التفت نحو سالاميس، وفكرت بزوجتي وصحت "آه، كاترين! لو أنني الآن معكِ في الفراش"

وانفجر البحارة في الضحك، وشاركهم الكابتن ليموني الضحك هذه المرة.

- يا للإنسان، إن الرجل حيوان، فقد كان شبح الموت مخيما فوق رأسه بينما كانت أفكاره منشغلة هناك، لا في أي مكان آخر، تباً له من حيوان!

وصفق الكابتن وطلب دورا آخر من الشراب لرفاقه، كان زوربا يستمع إلى الحوار بأذنين كبيرتين، والتفت إليهم ثم قال لي:

- ما هذا؟ ماذا يقول هذا الرجل؟

ولكنه فهم فجأة، وهتف بإعجاب:

- برافو، يا صديقي، إن هؤلاء البحارة يعرفون السر، وأغلب الظن لأنهم معرضون ليلا نهارا للموت.

وأشار بقبضته في الهواء وقال:

- حسناً، إن هذه مسألة أخرى، ولنعد الآن إلى عملنا، هل سأبقى أم لا؟.. قرر

بسرعة.

- أنا موافق يا زوربا، تعال معي إلى كريت، فلدي فحم هناك، وباستطاعتك مراقبة العمال، وفي المساء ستتمدد على الرمال، في هذا العالم ليس عندي لا زوجة ولا أطفال ولا كلاب، سنأكل ونشرب معا، وستعزف أنت على السانتوري.

- هذا إذا كنت في مزاج خاص للعزف، هل تسمح؟ سأعمل لك أي شيء تريده، فأنا رجلك المطيع هناك، ولكن السانتوري، فهذا شيءٌ آخر، إنه حيوان وحشي، وهو بحاجة إلى الحرية، فإذا كنت مستعدا للعزف فسأعزف، وربما أنحني أيضا، وسأرقص "الزيباكيكو" و"الهاسابيكو" و"البنتوزالي" ولكن دعني أخبرك منذ الآن، يجب أن أكون مستعدا لذلك، لنفهم ذلك بوضوح، وإذا أرغمتني على ذلك فسينتهي كل شيء الآن، فأنا بما يتعلق بهذه الأمور... رجل.

- رجل؟ ماذا تعني بذلك؟

- أعني.. حراً.

وطلبت كأسا من الروم فأضاف زوربا طالبا كأسا آخر أيضاً، وقرعنا الكؤوس، وكان الصباح قد أشرق، وسمعنا صفارة المركب، وأشار الحمال الذي نقل حقائبي إلى المركب، وقلت وأنا أنهض:

- تعال، لنذهب.. وليكن الله معنا.

- الله والشيطان معاً.

أضاف زوربا، ثم انحنى والتقط صرته ووضعها تحت ذراعه وفتح الباب وسبقني بالخروج.

الفصل الثاني

البحر، وطراوة الخريف، والجزر السابحة في النور، والمطر الناعم الذي أضفى حجابا شفافا على العري الأبدي لجزر اليونان، كم هو سعيد الرجل الذي يمخر عباب بحر إيجة قبل وفاته.. كم هي عديدة مسرات هذا العالم، نساء، وفواكه، وآراء، ولكن أن تشق عباب هذا البحر الهادئ وفي فصل الخريف لهي السعادة التي تملأ قلب الإنسان في نعيم الفردوس، فهذا هو المكان الوحيد الذي يُمكن للإنسان أن ينتقل فيه من مكان إلى مكان بهدوء وسهولة، من الواقع إلى الخيال.. إنها المعجزة بالذات!

وعند الظهر انقطع المطر، وبددت الشمس حجب الغيوم، وأطلت علينا ناعمة لتداعب بأشعتها صفحات الماء الحبيبة، وتركت نفسي تستوعب هذه المعجزة الخالدة التي انقشعت على مدى الأفق البعيد.

وعلى ظهر المركب، كاليونانيين، الشياطين الأذكياء، ذوو العيون المشعة والعقول التي تتقن فن المساومة الطويل على البضائع التافهة، وفي بعض الأحيان تأخذ بك الرغبة في أن تمسك بهذا المركب من طرفيه وتغرقه في البحر، ثم تهزه جيدا لتغسل عنه كل هذه الحيوانات التي أوسخته، رجال، فئران، وقمل. ثم تعومه من جديد بعد أن يصبح نظيفاً فارغاً.

ولكن في بعض الأحيان كانت العاطفة تمنعني، عاطفة بوذية، باردة كالاستنتاجات الميتافيزيقية، عاطفة ليست نحو الرجال فقط، بل نحو الحياة كلها بجهادها، وصراخها، ونواحها، وآمالها التي لا ترى إن كل شيء ليس إلا محاولة لإظهار الأشباح من العدم، عاطفة نحو اليونانيين، ونحو المنجم الفحمي، ونحو مخطوطتي الناقصة عن بوذا، وعن ذلك الخليط من النور والظلال الذي يزعج

صفاء الجو.. وكنت أختلس النظر إلى زوربا المنهك، الشاحب الوجه، وقد قبع في مجلسه على ظهر المركب على كومة من الحبال عند مقدمة المركب، كان يشم ليمونة ويصغي إلى صراخ الركاب وشجارهم بأذنيه الكبيرتين ثم يهز برأسه الضخم ويبصق ويتمتم قائلا:

- هؤلاء الحطام، ألا يخجلون من أنفسهم؟

- ماذا تعني بكلمة (حطام) يا زوربا؟

- كل هؤلاء الملوك، الديمقراطيات، النواب، المرائين!

إن الحوادث لم تكون لزوربا سوى أمور قديمة، فهو بنفسه قد ابتعد عنها، وبالتأكيد كان التلغراف، والبواخر، والمراكب، الأخلاق السائدة، والدين، لا بد إن تكون كالبنادق القديمة الصدئة، فتفكيره قد تقدم بسرعة تجاوزت تقدم العالم.

كانت الحبال تتشقق على الصواري، والشواطئ كانت تتراقص، والنساء المسافرات أصبحت وجوههن أكثر اصفرارا من الليمونة، لقد ألقين بأسلحتهن، المساحيق والمشدات ودبابيس الشعر والأمشاط، وشحبت شفاههن وأظافرهن بدأت تتحول ألوانها إلى الأزرق، وبدأت تتساقط الريش المستعار والشرائط الحريرية والجفون الاصطناعية، فقد كان الناظر إليهن بالإجمال يشعر بالقرف والرغبة بالتقيؤ.

وشحب وجه زوربا بدوره واصفر لونه ثم اخضر، وخفتت عيناه المتقدتان ولم يعد إلى تألقه الأول إلا في المساء، حين أشار إليّ ليريني درفيلين كانا يتقافزان وُيسابقان المركب، وصاح: درافيل!

ولاحظت لأول مرة أن نصف إبهام يده اليسرى مقطوع، فارتعدتُ وسألته:

- ماذا جرى لإصبعك يا زوربا؟

وأجابني وقد بدا عليه الاستياء لأنني لم أنظر إلى الدرافيل:

- لا شيء!

- هل قطعته بآلة حادة؟

- وما شأن الآلة بالموضوع؟.. كلا فقد قطعته بنفسي.

- بنفسك، ولماذا؟

- أنت لا يمكنك الفهم، أيها الرئيس، لقد سبق وأخبرتك أنني قمت بأعمال عديدة، وفي إحدى المرات عملت في صناعة الفخار، وقد أحببت هذا العمل لدرجة الجنون، هل يمكنك أن تتصور ماذا يعني أن تأخذ حفنة من الطين وتعمل منها ما تريد؟ قرر! ثم تدوّر الدولاب (العجلة) ويدور الطين معه بينما تقول بنفسك "سأصنع جرة، أصنع صحنا، سأصنع قنديلا، والشيطان يعلم ماذا أيضاً" هذا ما تقوله عن كونك رجلاً: الحرية!

لقد نسي البحر، ولم يعد يقضم الليمونة، وعاد الصفاء إلى عيونه..

- حسنا، ولكن إصبعك؟

- لقد كانت تزعجني، وتقف في طريق عملي، وتفسد عليّ مشاريعي، وفي ذات مرة أمسكت بفأس صغيرة.

- ألم تشعر بالألم؟

- كيف لم أشعر بألم؟ هل تعتقد أني جذع شجرة؟ إنني إنسان، لقد تألمت ولكن كما قلت لك كانت تقف في طريقي فقطعتها!

وهدأ البحر قليلا عند غياب الشمس وانقشاع الغيوم، فدبت نجمة المساء لامعة براقة، وألقيت نظرة على البحر ورحت أفكر... كيف نحب إلى هذا الحد؟ ثم نأخذ فأسا ونقطع ثم نتألم، لكني أخفيت اضطرابي وأردفت قائلا محاولا الابتسام:

إنها لطريقة سيئة يا زوربا! إنها تذكرني بالأسطورة الذهبية التي تقول عن ناسك رأى امرأة قد أزعجته جسديا، فتناول فأساً.. وصاح زوربا مقاطعاً:

- كم هو أحمق، يقطع هذا! ولكن هذا المسكين لا يعتبر عقبة!

- كيف ؟ بل هو عقبة كبيرة.

- أمام ماذا؟

- أمام ولوجك أبواب السماء!

وحدجني زوربا بنظرة ساخرة وهو يقول:

- إنه هو الذي يمكنك اعتباره مفتاح السماء!

ثم رفع رأسه وحدق بي كأنه يريد معرفة رأيي بالحياة التالية، وبملكوت السماء، والنساء والنساك، لكنه لم يتمكن من الوصول إلى شيء فهز رأسه الضخم واستطرد:

- إن الخصيان لا يدخلون السماء.

ولاذ بالصمت، فذهبت إلى مقصورتي وأخذت كتاباً وأخذت أقرأ. وفي صباح اليوم التالي استيقظتُ مبكراً، وكانت الجزيرة قد أصبحت عن يميننا، تلك الجزيرة الكبيرة المزهوة المتوحشة، والجبال الوردية الشاحبة تبدو كأنها تبتسم من خلال ضباب شمس الخريف، ومن حول المركب كان البحر الأزرق لا يزال ثائرا مهتاجاً.

وكان زوربا الملتحف بغطائه الرمادي ينظر محدقا إلى جزيرة كريت، وعيونه تنتقل من الجبل إلى السهل وتتبع الشاطئ وتتفحصه، كأنه قد شاهد جميع هذه الأراضي والبحار مرات سابقة وهو يتمتع برؤيتها ثانية، ودنوت منه واضعا يدي على كتفيه قائلاً:

- زوربا، أعتقد أنها ليست المرة الأولى التي تأتي فيها إلى كريت، فأنت تحدق بها

كأنك صديق قديم.

وتثاءب زوربا، كأنه ضجر، وشعرت أنه لا يميل إلى الحديث الآن، فابتسمتُ وقلت له:

- إن الحديث يضجرك، أليس كذلك يا زوربا؟

- ليس هذا بالضبط، أيها الرئيس، لكن الكلام صعب.

- صعب؟ ولماذا؟!

ولم يجبني على الفور، وأجال بنظره إلى الشاطئ مرة أخرى، لقد نام ليلته على ظهر المركب وكان شعره الرمادي المجعد يقطر بالندى، وكانت الشمس المُشرقة تُضيء التجاعيد في وجهه ورقبته، وحرك شفتيه أخيراً وهو يقول:

- في الصباح أجد صعوبة في فتح فمي، صعوبة كبيرة، اعذرني.

ومرة أخرى راح في صمتٍ عميق وعاد ينظر إلى كريت. ورن جرس طعام الإفطار، وظهرت الوجوه من المقصورات، نساء مترنحات وشعورهن مُتدلية تفوح منهن روائح القيء الممزوج برائحة الكولونيا، وأعينهن مذعورة بلهاء. وكان زوربا يجلس أمامي وهو يشرب فنجان القهوة ويغمس قطعة الخبز التي مسحها بالزبدة والعسل، ثم يأكلها، وأشرق وجهه بعد ذلك واطمأن قليلا وبدا فمه كأنه أصبح مرنا، ثم أشعل سيجارة وراح يستنشق أنفاسا وهو على أشد ما يكون من التلذذ، ولاحظت أنه أصبح مُستعدا للحديث ومن ثم راح يقول:

- هل هذه هي المرة الأولى التي آتي بها إلى كريت؟

ثم أغمض عينيه قليلا، ثم راح ينظر إلى جبل إبرا الذي كان ممتدا وراءنا، واستطرد قائلاً:

- كلا إنها ليست المرة الأولى ففي عام ١٨٩٦ أصبحت رجلا ناضجا تماما وكان

شاربي وشعري لا يزالان بلونيهما الحقيقيين وكنت لا أزال في مقتبل العمر، وكنت حين أسكر ألتهم المقبلات أولا ثم الطعام، نعم، فقد استمتعت إلى أقصى حدود الاستمتاع، لكن الشيطان تدخل أيضا فقد نشبت الثورة في كريت. في تلك الأيام كنت بائعا جوالا، وكنت أبيع الخضراوات متنقلا من قرية إلى قرية في مقدونيا وعوضا عن المال كنت أستبدل ما أبيعه بالجبن والصوف والزبد والأرانب والذرة، ثم أعود وأبيع هذه الأشياء وأكسب ربحا مضاعفاً، ففي كل قرية أزورها ليلا، أعلم أين أنام، ففي كل قرية كنت أجد قلب أرملة رحيمة عطوف، وكنت أقدم لها مشطا أو مكبا من الخيطان أو وشاحاً، أسود اللون بسبب المرحوم! وأنام معها بعد ذلك! ولم يكن ذلك يكلفني كثيراً.. كلا، لم تكن تكلفني كثيرا، أيها الرئيس، ولكن كما قلت سابقا لقد تدخل الشيطان وهبت كريت لتحمل السلاح، وقلت لنفسي لتذهب بمصيرها إلى الجحيم! ألا تقدر هذه الـ "كريت" اللعينة أن تتركنا بسلام؟ ثم وضعت جانبا أمشاطي وحملت بندقيتي وتوجهت للانضمام للثوار في كريت.

وصمت زوربا، فقد بدأنا نسير إلى خليج مستدير رملي، وكانت الأمواج تنتشر بهدوء دون أن تتكسر، تاركة خيطا رفيعا من الزبد على طول الشاطئ، وانقشعت الغيوم وتألقت الشمس ولاحت أطراف الجزيرة بوضوح، والتفت زوربا نحوي ورماني بنظرة ساخرة:

- والآن، أعتقد أيها الرئيس أنك تتصور بأني سأخبرك كم رأسا تركيا قطعت وكم أذنا قد وضعت في الكحول، فهذه هي العادة في كريت، حسنا.. ولكني لن أفعل، فأنا لا أحب أن أفعل ذلك لأني أخجل منه.

ما هذا الجنون؟ واليوم بعد إن أصبح عقلي راجحا صرت أسائل نفسي قائلا:

ما هذا الجنون الذي تملكنا لكي نلقي بأنفسنا على رجل آخر لم يؤذنا بشيء ثم نعضه ونقطع أنفه ونمزق أذنيه، وفي الوقت نفسه نطلب من الله العظيم

أن يُساعدنا! فهل هذا يعني أننا نطلب من الله أن يذهب معنا ليقطع آذان البشر وأنوفهم؟ ولكن في ذلك الوقت، كان دمي لا يزال حاراً في عروقي، وما كان باستطاعتي الوقوف والتساؤل والتفحص، إذ يجب على المرء لكي يفكر بدقة وعدل أن يكون هادئا مسناً دون أسنان! فعندما يكون المرء عجوزا لا أسنان له، فباستطاعته القول بسهولة تامة "لعنكم الله أيها الأولاد، فمن العيب أن تعضوا"، ولكن حين تكون له أسناني الاثنين والثلاثون يكون الإنسان متوحشا كالحيوان.. نعم، أيها الرئيس، كالحيوان المفترس آكل لحوم البشر.

وهز رأسه ثم قال:

- وهو يأكل الخراف أيضاً، والدجاج والخنازير، ولكنه إذا لم يأكل لحم البشر تبقى معدته خاوية، كلا.. إن معدته لا تكتفي، والآن ما لديك من أقوال؟!

ولكنه لم ينتظر الجواب، بل أكمل قوله وهو يحدق بي:

- ماذا يمكنك أن تقول، فكما أرى، إن سيادتك لم تشعر بالجوع مطلقاً، ولم تقتل أبدا، ولم تسرق ولم تزنِ، ماذا تعرف من هذا العالم؟ إن عقلك بريء، وجلدك لم ير أشعة الشمس.

قال جملته الأخيرة بكثير من الاحتقار، مما جعلني أشعر بالخجل من يدي الناعمتين ووجهي الشاحب وحياتي الخالية من لطخات الدم والوحل، ثم قال وهو يمسح بيده الخشنة على الطاولة:

- حسناً.. حسناً، فهناك ما أود أن أسألك إياه فلا بد أنك قرأت مئات الكتب، فربما تعرف الجواب.

- هيا، قل لي يا زوربا، ما هو؟

- إن هنا ثمة معجزة تحدث، أيها الرئيس، معجزة مضحكة تحيرني، إن كل هذه الأعمال، هذه الخدع القذرة والسرقات والمذابح التي نقوم بها — نحن الثوار —

كل هذه جاءت بالأمير جورج إلى كريت، الحرية!

ثم نظر إلي بعينين ملؤها الدهشة: .

- إنها أحجية عظيمة، فإذا أردنا الحصول على الحرية في هذا العالم القذر يجب أن نقوم بهذه الجرائم، وهذه الخدع القذرة، أليس كذلك؟ أقول، إذا أخبرتك عن كل هذه الجرائم المريعة لوقف شعر رأسك! ولكن ما هي نتيجة كل ذلك؟ الحرية! فبدلاً من أن يزيلنا الله تعالى بصاعقة من عنده يمنحنا الحرية! إني لا أفهم حقاً.

ونظر إلي كأنه يطلب العون مني، وقد لاحظت أن هذه المُعضلة قد شغلته وآلمته ولم يتمكن من كشف سرها، ثُم سألني بقلق: "هل فهمت؟!"

ماذا أفهم! وماذا أقول له؟ فإما هذا الذي ندعوه إلها غير موجود، أو أن تكون هذه التي ندعوها جرائم واغتيالات ضرورية للكفاح من أجل حرية العالم.

وحاولت أن أجد له طريقة أسهل لأشرح له الأمر.

- كيف تستطيع الزهرة أن تنمو وتعيش وسط السماد والقذارة؟ افترض يا زوربا لنفسك أن هذه الأقذار هي الإنسان وأن الزهرة هي الحرية.. ولكن البذرة؟

صاح زوربا وهو يضرب الطاولة بقبضة يده ويقول:

لكي تنبت الزهرة يجب أن يكون هناك بذرة، من هو الذي وضع بذرة كهذه في جوفنا؟ ولماذا لا تنبت البذرة هذه زهور لطيفة شريفة؟ لماذا تحتاج إلى الدم والأوساخ؟

فهززت رأسي قائلا:

- لا أعلم.

- ومن يعلم؟

- لا أحد.

وصاح زوربا في يأس:

- إذاً ماذا تنتظر مني أن أفعل بالقوارب والمحركات وربطات العنق؟!

وتململ اثنان من المسافرين الذين كانوا يحتسون القهوة على مائدة مجاورة ورهفوا آذانهم لسماع ما نقوله، واشمأز صديقي منهم وقال لي بصوتٍ خفيض:

- لنغير الموضوع، فعندما أفكر في ذلك أشعر برغبة في تحطيم كل ما تقع عليه يدي من كراس أو قناديل أو حتى ضرب رأسي بالحائط، ولكن ما الفائدة من كل هذا؟ فسأضطر إلى دفع ثمن ما حطمته، ثم أضطر للذهاب إلى الطبيب ليربط لي رأسي، فهذا أسوأ بكثير، فسينظر إليَّ من أعالي السماء وينفجر بالضحك.

وحرك يده فجأة كأنه يريد إن يتخلص من ذبابة مزعجة، ثم قال:

- لا بأس، فكل ما أردت أن أقوله لك هو: عندما جاءت المركبة الملكية وهي مزدانة بالأعلام وابتدأ إطلاق المدافع، وحين وضع الأمير رجله على أرض كريت.. هل سبق لك أن رأيت شعباً بأسره يُصبح مجنونا لأنه رأى حريته؟ كلا؟ آه، أيها الرئيس، إذن فقد خلقت أعمى، وستموت أعمى، فإذا قُدر لي أن أعيش ألف سنة حتى لو أن كل ما تبقى مني عبارة عن قطعة لحم حية، فلن أنسى ما رأيته ذلك اليوم! وإذا كل واحد منا قُدر له أن يختار جنته في السماء حسب ذوقه – وهذا ما يجب أن نكونه، فهذا ما أدعوه جنة – سأقول للإله العظيم "يا إلهي، لتكن جنتي جزيرة كريت المملوءة بالأعلام والزينات، ودع هذه اللحظة التي وطأت بها أقدام الأمير جورج أرض كريت تستمر قرونا طويلة! فهذا يكفي".

وعاد زوربا إلى الصمت مرة أخرى، ورفع شاربه، ثم ملأ كأسا من الماء البارد

وشربها دفعة واحدة:

- ماذا جرى في كريت يا زوربا، أخبرني!

وقال لي مُنزعجاً:

- هل سنعود إلى العبارات الطويلة؟ انظر، أقول وأكرر لك إن هذا العالم غامض جدا والإنسان ليس إلا وحش كاسر. وحشٌ عظيمٌ وإله، حارس أسود ثائر، جاء معي من مقدونيا، اسمه يورغا وكان يدعونه "المُجرم" خنزير شرس، وهل تعلم.. لقد بكى، وقلت له وعيوني تترقرق بالدمع "لماذا تبكي أيها الكلب؟ لماذا تبكي أيها الخنزير؟" ولكنه لم يُجب، بل ألقى بيديه حول عنقي وراح يبكي كالأطفال، ثم تناول محفظته ووضعها على حجره بعد أن أفرغ منها القطع الذهبية التي نهبها من الأتراك ثُم ملأ قبضته بالقطع وألقى بها في الهواء، أرأيت.. أيها الرئيس، هذه هي الحرية!

ونهضت إلى ظهر المركب لأستنشق هواء البحر.. "هذه هي الحرية" فكرت بنفسي، تهوي ثم تجمع قطعا من الذهب، وفجأة تتغلب على تلك العاطفة فتتمسك بكنزك وتُلقي به أدراج الرياح لتحرر نفسك من عاطفة مُعينة وتأخذ بعاطفة أسمى، أليست هذه هي نوعا آخر من العبودية؟ لتضحي بنفسك من أجل فكرة معينة، من أجل عرق ما، لله؟ أم إن كلما ارتفع الرمز طال حبل العبودية؟ عندئذ يمكننا الاستمتاع واللهو في أرجاء أوسع ونموت دون أن نصل إلى نهاية الحبل، هل هذا ما ندعوه الحرية؟!

عند المغيب شارفنا الشاطئ الرملي، ورأينا أخيرا الرمال البيضاء الصافية وأشجار الخرنوب والتين، والتل الصغير الأجرد الذي يشبه وجه امرأة تستريح، وتحت ذقنها وحول رقبتها تمر عروق الفحم الرمادية.

كانت نسمات الريح الخريفية تهب، والغيوم المتقطعة تمر في السماء لتُغرق الأرض بالظلال، وغيوم أخرى كانت تنظر وتهدد الشمس التي احتجبت وراءها،

ووجه الأرض يضيء ويظلم كوجه حي مُنزعج.

توقفت للحظة على الرمل ونظرت، كانت الوحدة مُجسمة أمامي، وحدة مُميتة ولكنها مُدهشة، كالصحراء، وبرزت أغنية البوذيين من الأرض وتلمست طريقها إلى أعماق نفسي "متى سأنزوي في الوحدة أخيرا، لوحدي، دون رفاق، وبدون فرح أو بدون حزن، وبالتأكيد مقدس إن كل شيء ليس إلا حلما؟ متى، وفي أسمالي البالية – دون رغبات – سأنزوي مُكتفيا في الجبال؟ ومتى، وأنا متبين أن جسدي ليس إلا مرضا وجريمة، وحياة وموت، حرا دون خوف وبسعادة، سأعتزل إلى الغابات؟ متى؟ متى؟ آآه.. متى؟"

تقدم زوربا نحوي وهو يحمل السانتوري تحت ذراعيه، بخطى قلقة، فقلت له محاولا إخفاء قلقي:

- هناك مناجم للفحم!

ودون أن ينظر إلى حيث أشرت أجابني بهزة من رأسه:

- فيما بعد، فهذا ليس الوقت لذلك أيها الرئيس، يجب أن ننتظر حين تقف الأرض، إنها لا تزال تموج وليأخذها الشيطان، كظهر المركب، تعال... لنذهب إلى القرية.

بهذه الكلمات تقدم بخطى طويلة محاولا إنقاذ وجهه، وتراكض اثنان من الصبية الأشقياء ليحملا الحقائب، وفي الكوخ، حيث نقطة الجمرك، جلس أحد الموظفين يدخن (الحُقة) ونظر بطرف عينه بنظرات ثاقبة، ثم ألقى نظرة سريعة على الحقائب وتحرك قليلا كأنه يريد الوقوف لكنه وجد أن ذلك سيأخذ منه كثيرا من المشقة، واكتفى بأن أشار إلينا قائلاً "أهلا بكم"، وتقدم أحد الصبية وقال لي بلهجة ساخرة:

- إنه ليس كريتيا، إنه شيطان بليد.

- أليس الكريتيين شياطين بلداء؟

فقال الكريتي الصغير:

- إنهم كذلك، نعم، إنهم كذلك.. ولكن بطريقة مختلفة.

- هل القرية بعيدة؟

- على بعد طلقة بندقية من هنا، انظر، وراء البساتين في الوادي، إنها قرية جميلة، يا سيدي تحوي الكثير من كل شيء، شجر خرنوب، لوبياء، زيت، نبيذ، وهناك على الرمال نبت الخيار مبكرا كذلك البطيخ، إن هواء إفريقيا هو الذي يُنضجها باكراً، فإذا ما نمت بأحد البساتين فإنك تسمع صوت طقطقتها وهي تنضج وتكبر.

كان زوربا يتقدمنا ورأسه ما زال مترنحا، فصحت به قائلاً:

- ارفع رأسك يا زوربا، لقد اجتزنا المخاطر الآن، ولم يعد هناك من داعٍ للخوف.

تقدمنا مسرعين، وكانت الأرض مملوءة بالرمال والصدف، وهنا وهناك نجد بعض أشجار التين، كان الجو ثقيلا، والغيوم تتجمع وتقترب والريح تهدأ، واقتربنا من شجرة تين ضخمة، فتوقف أحد الولدين وأشار إلى الشجرة وهو يقول:

- هذه شجرة التين خاصة سيدتنا الصغيرة.

وفوجئت بكلمته، فقد كانت لكل شجرة أو صخرة في أرض كريت قصة محزنة:

- ولماذا تدعى كذلك؟

- في الأيام الماضية، أيام أجدادنا، وقعت إحدى البنات من الأعيان في غرام أحد الرعاة الشباب، ولكن والدها لم يكن موافقا، وراحت الابنة تبكي وتصرخ وترجو والدها الذي لم يلن، وفي أحد الأيام اختفى الشابان وظلوا يبحثون

عنهما يوما، ويومين، وثلاثة، وأسبوعا، ولكن دون جدوى، وأخيرا فاحت رائحة العفونة فتتبعوها فوجدوا العاشقين تحت شجرة التين، متعانقين متعفنين، هل تفهم؟ لقد عثروا عليهما بسبب رائحة العفونة.

وانفجر الصبي بضحكة مجلجلة، وتناهت إلى أسماعنا ضوضاء القرية البعيدة، وسمعنا أصوات نباح الكلاب وصياح النسوة والديوك، وشممنا رائحة العنب من القدور الذي كان العرق يقطر منها.. هذه هي القرية.

وما إن اقتربنا من التلة الصغيرة حتى لاحت لنا القرية الصغيرة وبدت لنا كأنها تتسلق سفح الوادي، وكانت البيوت الصغيرة متجملة، متلاصقة، نوافذها كأنها بقع سودا، فالبيوت كانت مبنية من الكلس الأبيض الناصع والحجارة، ولحقت بزوربا وقلت له:

- لا تنس، يا زوربا، أن تتصرف بلياقة فقد دخلنا إلى القرية الآن، ولنتصرف كرجال الأعمال، فأنا المدير وأنت ناظر العمال، إن الكريتيين لا يأخذون الأمور بسهولة فما إن تقع أعينهم عليك حتى يبحثوا عن شيء ظاهر بك ويُطلقوا عليك لقبا مُعينا، حيث لا يمكنك بعد ذلك التخلص من هذا اللقب، وستجري كالكلب الذي لحقت بذيله مقلاة.

وأمسك زوربا بشاربه وغاب في التأملات، وأخيرا قال:

- اسمع، أيها الرئيس، إذا كانت هناك أرملة في القرية فلا لزوم للخوف، وإذا لم يكن.

في هذه اللحظة وما إن دخلنا القرية تقدمت منا امرأة فقيرة بأسمال بالية ومدت يدها نحونا، ولاحظت أن لها شاربا أسود، وصاحت بزوربا كأنها تعرفه:

- مرحى يا أخ، هل لك روح أيها الأخ؟

توقف زوربا وأجابها:

- نعم لدي.

- إذاً أعطني خمس درخمات.

نفحها بشيء من المال قائلا: "خذي"، افترت شفتاها عن ابتسامة حريرية، وأضاف زوربا قائلا:

- إن الحياة هنا ليست غالية على ما أظن، إن الروح تساوي خمسة درخمات.

اقتربنا نحو ساحة القرية فرأينا مقهى كُتب على مدخله "مقهى الحشمة، ودكان اللحام".

- ولماذا تضحك ؟!

سألني زوربا، لكنني لم أجد وقتاً لأجيبه، فقد خرج من باب الدكان هذا خمسة أو ستة عمالقة يرتدون سراويل زرق لها أحزمة حمراء وصاحوا بنا:

- أهلا بالأصدقاء! تفضلوا بالدخول وخذوا كأسا من العرق، إنه لا يزال حارا من القدور.

ولعق زوربا لسانه وقال:

- ما رأيك أيها الرئيس؟ هل نشرب كأسا؟

شربنا كأسا أحرق أمعاءنا، وقدم إلينا صاحب المقهى اللحام، وهو رجل عجوز جليل، كرسيين، فسألته عن مكان نأوي إليه وصاح أحدهم:

- اذهبا إلى مدام هورتنس.

تساءلت بدهشة:

- هل هي فرنسية؟

لقد جاءت من مكان لا يعلمه إلا الشيطان ما هو، لقد طافت في جميع

الأرجاء ثم استقرت هنا وأسست فندقا صغيرا. وقال أحد الأولاد:

- وهي تبيع الحلوى أيضاً!

ثم أضاف أحدهم:

- وهي تتزين وتصبغ وجهها أيضا، وتضع شريطة حول عنقها، ولديها ببغاء.

هتف زوربا:

- وهل هي أرملة؟

قال له صاحب المقهى:

- كم هو عدد السكارى هنا أيها الصديق؟.. إنها أرملة لعدد كبير من الأزواج، هل فهمت ما أقصد؟

- نعم فهمت.

أجاب زوربا وهو يلعق شفتيه.

- ويمكنها أن تجعل منك أرمل

- انتبه أيها الصديق!

صاح أحد الرجال وضحك الآخرون، وتقدم صاحب المقهى حاملا صينية عليها الخبز والجبن وهتف قائلا:

- هيا، دعوهما وشأنهما، وسوف أستضيفهما عندي.

- كلا، أنا سأستضيفهما، فأنا ليس عندي أطفال وبيتي كبير.

أجاب صاحب المقهى، وهو ينحني فوق الرجل، ويقول:

- أرجو المعذرة، أيها العم أجانيوستي، فأنا سبقتك بالكلام.

- إذن خذ الآخر، وسآخذ أنا العجوز.

وصاح زوربا غاضباً:

- أي عجوز؟!

قُلت له وأنا أهدئ من روعه:

- لن نفترق، وسنذهب لعند مدام هورتنس.

كانت امرأة بدينة قصيرة القامة، شعرها باهت اللون، تتلوى في مشيتها، مادة ذراعيها، وعلى ذقنها خال تتدلى منه شعيرات طويلة، وكانت تربط حول عنقها شريطة حمراء، وخدودها المجعدة مصبوغة بلون بنفسجي، وقالت لنا مرحبة:

- أهلا، أهلا وسهلا.

وأجبتها ببشاشة وأنا أقبل يدها:

- كم أنا سعيد بمعرفتك يا مدام هورتنس، إنا نريد سريرين يا سيدتي... دون قمل.

- أوه، بدون قمل؟ لا أعتقد ذلك، ليس هنا من قمل على الإطلاق.

تقدمتنا وهي ترفس الحجارة بقدمها وكانت تلبس جوربا أزرق، وتنتعل حذاءين مشقوقين عليها عقدة صغيرة من الحرير ولحق بها زوربا وعيناه تكاد تأكلانها!

- انظر، انظر أيها الرئيس، كيف تتلوى في مشيتها كالنعجة ذات الإلية المشحمة.

وعض زوربا على شاربه بعصبية وعيناه مسمرتان على أرداف السيدة وقال:

- همم، إن هذه الحياة ملأى بالعهر.

الفصل الثالث

كان فندق مدام هورتنس عبارة عن صف من أكواخ الحمام القديمة جمعت مع بعضها البعض. أما الأولى فكانت دكانا لبيع الحلويات، والسجائر، وفستق العبيد، والشموع، والعلكة، وأربع غرف – أو أكواخ – متلاصقة تألفت منها غرف النوم. وفي الخلف كان المطبخ، وغرف الغسيل، وقن الدجاج والأرانب. وكانت عيدان القصب الكثيفة مغروسة حول المكان في الرمل الناعم. وكانت رائحة البحر تعبق بالمكان بالإضافة إلى روائح (البراز والبول). لكن الرائحة تتغير حين تمر مدام هورتنس بين وقت وآخر، وكأن أحدهم أفرغ طشتا للحلاق تحت أنفك.. وما إن جهزت لنا الغرف والسرائر حتى انطرحنا عليها دون حراك ولم نستيقظ إلا في صباح اليوم التالي.

كان اليوم الأحد والعمال سيصلون في الغد من القرى المجاورة ليبدءوا العمل في تمام التاسعة؛ لذلك فقد ترك لي بعض الوقت لأقوم بجولة على الشاطئ الذي ساقتني إليه الأقدار. كان الفجر يكاد يلوح حين خرجت. فذهبت في سبيلي مارا، بالبساتين، متتبعا حافة البحر، متعرفا إلى الأرض والهواء.

وصعدت إلى تلة مجاورة، وأجلت نظري إلى منظر الصخور الجرانيتية والكلسية القاسية، وأشجار الخروب القاتمة، وأشجار الزيتون الفضية وأشجار التين.. كان هذا المنظر، كما بدا لي، شبيهاً بالنثر الجيد، المصوغ بعناية فائقة، بسيطا، خاليا من الزخارف المصطنعة، قويا، صارما. لقد كان مُعبراً عن كل ما هو ضروري بطريقة سهلة. انه لم يكن مُتباهياً ولم يكن مُتصنعا، فهو ينطق بكل شيء بطريقة قاسية صارمة. لكن الليونة كانت متبدية من خلال أشجار البرتقال والليمون التي كانت تُعطر الهواء برائحتها الذكية. ومن بعيد كان البحر الخالد يبدو كالشعر

الذي لا ينفد.

- كريت.. كريت.

قُلت متمتما لنفسي وقلبي ينبض بالبهجة، ونزلت من التل الصغير، ورحت امشي قريبا من ماء البحر. فرأيت صبايا صغار يسرن في طريقهن إلى الدير لسماع القداس عند شاطئ البحر.

وما إن ظهرت لهن حتى توقفن عن المسير، وأصبن برعب شديد، وتشبثن ببعضهن البعض، وعلمت فيما بعد إن رؤية رجل غريب كانت تخيفهن، فعلى طول الساحل الكريتي كان القراصنة في القرون الغابرة يقمن بغزوات مفاجئة، ويخطفون النساء والأطفال، ويربطونهن بأحزمتهم الزرقاء الغليظة ويلقون بهن في السفينة ويبيعوهن في الجزائر، والإسكندرية، وبيروت.

ورحت أنظر إليهن مبتسما بعد أن تكاتفن مع بعضهن البعض وسرن كالطود المرصوص، واقتربن مني وأضيئت وجوههن بالاطمئنان وتابعن مسيرهن بعد أن ألقيت عليهن تحية الصباح، وأشرقت الشمس عن سماء صافية، وجلست بين الصخور أتأمل البحر أمامي. وشعرت بالقوة تدب في جسدي. ورحت أجول بمخيلتي كالموج الهادر أمامي مطاوعا خاضعا دون مقاومة لنغمات البحر.

وشعرت بالانقباض، وانطلقت من أعماقي أصوات متضرعة، وعلمت الذي يدعوني. فأينما أكون بمفردي كنت أشعر بثمة نداءات تطلبني، والمخاوف تنتابني، وفجأة سمعت صوت رفيقي زوربا يناديني من الخلف، فاستدرت لأجده منتصبا وهو يضحك ويقول:

- لقد بحثت عنك منذ ساعات، ولكن كيف أستطيع مشاهدتك في هذا المخبأ؟

ولم أجبه على تساؤله، استطرد قائلا:

- لقد مضى نصف اليوم، والدجاجة المطبوخة قد نضجت، وستذوب المسكينة

بعد قليل.

- نعم أعرف ذلك، ولكني لا أشعر بالجوع.

- لا تشعر بالجوع!! ولكنك لم تأكل شيئا منذ الصباح، إن في جسدك روحا، ويجب أن تُشفق عليها، أعطها شيئا لتأكله، أيها الرئيس، أعطها شيئا فإذا لم تطعمها تركتك في نصف الطريق.

لقد احتقرت ملذات الجسد منذ سنين، ولو كان ذلك ممكنا لأكلت في الخفاء، كأني أقوم بعمل مخجل، وقلت لزوربا كي لا يُثرثر: "حسناً، سآتي"

وذهبا إلى القرية بعد أن مرت الساعات الطوال بين الصخور وكما تمر الساعات بين العشاق كالبرق الخاطف. وسألني زوربا مترددا:

- هل كنت تفكر بالمنجم؟

- وهل تعتقد أني كنت أفكر بسواه؟ ففي الغد سنبدأ العمل، لذلك يجب أن أقوم ببعض الحسابات.

- وما هي نتيجة الحسابات؟

- بعد ثلاثة أشهر يجب أن نستخرج عشرة أطنان من الفحم لنغطي مصاريفنا.

ونظر إلي زوربا بشوق وقال:

- وما أخذك إلى الشاطئ لتقوم بتلك الحسابات، بحق الشيطان؟ أرجو المعذرة أيها الرئيس لسؤالي هذا، ولكني لا أفهم، فعندما أضطر لمقارعة الأرقام، أشعر بأني بحاجة إلى أن أحشر نفس في جوف الأرض كي لا أستطيع مشاهدة أحد، فإذا رفعت نظري ورأيت البحر، أو شجرة، أو امرأة، حتى لو كانت عجوز عند ذلك تطير جميع هذه الأرقام وسأضطر إلى مطاردتها.

- ولكنها غلطتك أنت يا زوربا، فأنت لا تستطيع التفكير.

- ربما تكون على حق، أيها الرئيس، فهذا يتوقف على نظرتك للأمور. فهناك حالات لا يتمكن حتى سليمان الحكيم.. اسمع، ففي ذات يوم بينما كنت مارا في قرية صغيرة، رأيت رجلاً عجوزاً يبلغ التسعين من العمر يزرع شجر اللوز فقلت له: "هل تزرع شجرة لوز يا جدي؟"، والتفت إلي وقال: "يا بني، أنا اعمل كأني لن أموت أبداً، وأعمل كأني سأموت في أي لحظة"، والآن من كان منا على صواب، أيها الرئيس؟

ونظر إلي نظرة المنتصر وقال:

- والآن، لقد أحرجتك!!

وبقيت ملتزما الصمت، فهناك ممران متساويان قد يؤديا إلى القمة نفسها، أن تعمل كأن الموت غير موجود، وأن تعمل متوقعاً الموت في أية لحظة، هما أمران ربما كانا متشابهين، ولكن عندما سأني زوربا هذا السؤال لم استطع الإجابة عليه على التو. وقال لي زوربا هازئا:

- حسنا! لا بأس. لا تغضب أيها الرئيس فلن تستطيع المجادلة ولنتكلم عن أشياء أخرى. فأنا الآن أفكر بالدجاجة والأرز. لنأكل الآن. ومن ثم نرى فلكل شيء وقته المُحدد. الآن أمامنا الأرز، فلنفكر به، وغداً سيكون المنجم أمامنا وسنفكر بأمره أيضاً.

وعند المقهى المجاور رأينا شيخا يبدو عليه الأسى يقف بانتظارنا. إنه مافراندوني كبير رجال القرية الذي أجرنا المنجم، لقد جاء في الليلة الماضية إلى مدام هورتنس ليأخذنا إلى بيته وقال لنا:

- إنه من العار أن تظلا في الفندق، كأنه لا يوجد رجال في القرية!

لقد كان مُتأثراً، وكلماته كانت متزنة متناسقة مع مركزه المحترم في القرية. وعندما رفضنا طلبه شعر بالاستياء لكنه لم يلح. وقال لنا وهو يغادر الفندق:

- لقد قمت بواجبي وأنتم أحرار.

وبعد قليل أرسل لنا شيئا من الجبن، وسلة فواكه، وجرة من العرق، وقد قال لنا الخادم الذي أحضرها:

- مع تمنيات الكابتن مافراندوني.

واقتربنا منه وألقينا عليه التحية، وأجابنا واضعا يده على صدره:

- أتمنى لكما حياة طويلة.

وتمتم زوربا معلقا:

- إنه لا يحب كثرة الكلام، ويبدو بوقفته كالقضيب العجوز.

- لكنه فخور بنفسه، إنه يعجبني.

وما إن رأتنا مدام هورتنس، حتى صاحت مرتبكة وهرولت إلى المطبخ، وأسرع زوربا إلى وضع الطاولة على الشرفة تحت ظل الدالية، وجاء بالخبز وقطعه قطعا صغيرة، وأحضر النبيذ، ثم نظر إلي بعد أن انتهى من إعداد الطاولة لثلاثة أشخاص وقال:

- هل رأيت أيها الرئيس؟

- نعم رأيت أيها الفاسق!

- إن الطيور العجائز التي تصلح للشواء! وخذها نصيحة مني!!

وراح يُتمتم بأغاني الحب القديمة وهو يهرع متمما تجهيز المائدة.

- هكذا يجب أن نعيش أيها الرئيس، يجب أن نستمتع بكل دقيقة نعيشها، إني أعمل أشياء كأني سأموت بعد دقيقة. وأنا أسرع بذلك كي لا يدركني الموت قبل أن أحصل على العصفور.

وسمع صوت مدام هورتنس: "إلى المائدة".

وقدمت إلينا القدر، ثم وقفت مشدوهة، فقد رأت الصحون ثلاثة، ورمقها زوربا وقد علا وجهها الاحمرار الشديد ولمعت عيناها الصغيرتان. وهمس زوربا قائلاً:

- لقد بدأت تشعر بالحرارة تدب فيها.

ثم نظر إليها وقال لها بكثير من اللياقة والأدب:

- يا جنية الأمواج الجميلة، لقد غرقت سفينتنا وألقى بنا البحر في مملكتك. أرجو أن تشرفينا، يا عروسة البحر الجميلة، وتشاركينا الطعام.

وفتحت الغانية العجوز ذراعيها وضمتهما إلى صدرها، كأنها تريد أن تضمنا نحن الاثنين إليها، ثم تمايلت بعظمة ولامست زوربا ولامستني وأسرعت عائدة إلى غرفتها، وظهرت بعد قليل ترتدي أجمل ما لديها من ثياب: فستانا مفتوحا عند الصدر، وضعت عند الصدر وردة متألقة!! وأحضرت معها قفص الببغاء الذي علقته على غصن الدالية أمامنا. وبعد أن أجلسناها بيننا، رُحنا نلتهم الطعام التهاما، دون أن ننبس بكلمة واحدة. فقد كان الحيوان داخلنا يأكل ويتغدى ويشرب الخمر، والطعام الذي نزوده يتحول بسرعة إلى دم، والعالم من حولنا يبدو أجمل، والسيدة التي تتوسطنا بدأت تبدو أصغر في كل لحظة والتجاعيد في وجهها بدأت تزول وتُمحى.. وكان الببغاء المعلق على الشجرة ينظر إلينا كأنه رجل غريب قد سحره هذا المنظر..

وكانت عينا زوربا تدوران في محجريهما، ثم فتح ذراعيه كأنه يريد إن يعانق العالم كله ثم صاح بي مشدوهاً.

- ماذا جرى، أيها الرئيس؟ فما إن نشرب كأسا من النبيذ حتى يبدو العالم وقد فقد صوابه. ومع ذلك فالحياة كلها خمر ونبيذ. قل لي، بشرفك، هل هذه

عناقيد متدلية فوق رؤوسنا؟ أم هي ملائكة؟ لا أعلم. أم ترى ليست شيئا على الإطلاق، ولا شيء موجود، لا الدجاجة، ولا عروسة البحر، ولا كريت! قل لي أيها الرئيس، تكلم كي لا أفقد عقلي.

ولاحظت أن زوربا بدأ يشعر بالفرح؛ لقد شبع من الدجاجة، وراح ينظر إلى مدام هورتنس. كانت نظراته تغتصبها، وتصعدان إلى جسدها وتدخلان إلى صدرها المُنتفخ وتتحسسانه وكأنهما يدان.

وكانت عينا السيدة الصغيرة تلمعان من السرور، فقد بدأت تستمتع بعد أن أفرغت عدة كؤوس من النبيذ. وبدا كأن شيطان الخمر قد رجع بها إلى الوراء إلى أيام الصبا الجميلة. ونهضت وقد عاد إليها لطفها وبشاشتها ورغبتها، ثم أغلقت باب الحديقة الخارجي كي تمنع الأعين الفضولية من رؤيتنا وأشعلت سيجارة وراحت تنفث دخانها بهدوء واستمتاع.

في أوقات كهذه تنفتح أبواب المرأة جميعها، ويستريح حراسها، والكلمة الطيبة تصبح قوية كقوة الذهب أو الحب. وهكذا أشعلت غليوني وقلت تلك الكلمة الطيبة:

- مدام هورتنس، أنت تذكريني بسارة برنهارت، عندما كانت صغيرة، لم أكن للحقيقة أنتظر رؤية أناقة، كهذه عظمة، كهذه، لياقة كهذه، وجمالاً كهذا الجمال. ما هذا الـ (شكسبير).
- شكسبير؟ أي شكسبير؟
- الذي أرسلك إلى هنا بين المتوحشين.

وطارت بتفكيرها إلى أيام الغناء والمسرح، وجالت به في المقاهي والمسارح من باريس إلى بيروت، وعلى طول شواطئ الأناضول، وكأنها تذكرت فجأة: لقد كان ذلك في الإسكندرية، وفي مسرح كبير عامر بالثريات، والمقاعد الفخمة، والرجال والنساء، والظهور عارية، والعطور، والأزهار، وفجأة ارتفعت الستارة وظهر رجل

أسود مُخيف.

- أي شكسبير؟

وسألتني مرة أخرى بكبرياء، فقد تذكرت.

- هل هذا الذي يدعونه أيضاً عطيل؟

- هذا هو. أي شكسبير إذن ألقى بك على هذه الصخور الوحشية، أيتها الزهرة البيضاء؟

ونظرت حولها، وكانت الأبواب مغلقة، والببغاء نائمة، والأرانب تتبادل الحب، وكنا لوحدنا، وراحت تفتح لنا قلبها، وكأنها تفتح أمامنا صندوقا عتيقا، مملوءا بالطيب، وأوراق الرسائل الصفراء والثياب القديمة.

وكانت تلفظ بعض الكلمات باليونانية، وراحت تخلط بينهما، ولكننا تمكنا من فهمها بوضوح. وفي بعض الأحيان كنا نجد صعوبة في إخفاء ضحكاتنا، وفي بعض الأحيان كنا ننفجر بالبكاء، علما أننا قد شربنا كثيرا من النبيذ.

- حسنا إن السيدة التي تنظرون إليها الآن لم تكن مُغنية بسيطة بالحانات، كلا، فقد كانت فنانة شهيرة وكنت أرتدي ثياباً داخلية من الحرير الخالص، ولكن الحُب.

وتنهدت تنهيدة عميقة، وأشعلت سيجارة ثانية من زوربا وقالت:

- لقد أحببت أميرالاي، فقد أصبحت كريت مرة أخرى ولاية ثائرة وأساطيل الدول العظمى بدأت ترسو في موانئ (سورا)، وبعد أيام قليلة رسوت أنا الأخرى هناك. آه، يا للحظ! لو رأيتم هؤلاء الأميرالات الأربعة: الإنكليزي، الفرنسي، الإيطالي، الروسي، جميعهم متلفحين بالذهب، والأحذية اللامعة، والقبعات المريشة، كالديوك تماما، ويا لتلك اللحى، المجعدة الحريرية، الداكنة، الشقراء، الرمادية، والحمراء، وما أطيب رائحتهم! فكل واحد منهم كانت له رائحته

المميزة، فهكذا كنت أميز بينهم في الظلام، فإنكلترا كانت تتميز برائحة الكولونيا، وفرنسا برائحة البنفسج، وروسيا برائحة المسك، وإيطاليا، آه! ايطاليا المشغوفة بالعطر. يا إلهي، يا لهذه اللحى! وكنا نلتقي عدة مرات على ظهر سفينة العلم، ونتحدث عن الثورة. وكانت بزاتهم مفتوحة وكان ثوبي الحريري يلتصق بجسدي، فقد كانوا يصبون عليه الشمبانيا، وكان ذلك كله في الصيف، كما تعلم. وكنا نتحدث عن الثورة بجدية، وكنت أرجوهم وأتضرع إليهم ألا يطلقوا مدافعهم على الكريتيين المساكين. وكنا نشاهدهم بالمنظار على الصخور قرب (كايني) ضئيلين كالنمل، يرتدون قمصاناً زرقا وأحذية صفراء، وهم يصرخون ويصيحون وكان معهم علم.

وفجأة سمعنا صوتا خلف قضبان القصب، وتوقفت المجاهدة العجوز عن الكلام، مذعورة. ورأينا بين القضبان عيون الأطفال الخبيثة تراقبنا.

وحاولت المغنية القيام عن الكرسي، ولكنها لم تتمكن، فقد أكلت وشربت كثيراً. فعادت إلى الجلوس وهي تتصبب عرقاً، وأخذ زوربا حجراً فتفرق الأولاد وهم يصرخون.

- استمري، يا جميلتي، استمري يا كنزي!

كذلك قال زوربا، واقترب بكرسيه منها.

- وقلت للأميرالاي الإيطالي، فقد كنت قد ألفته أكثر من الآخرين، وأمسكت بلحيته وقلت له، "كانافارو أرجوك، يا كانافارو العزيز، لا تفعل بوم، بوم! أرجوك!".. كم من المرات كانت هذه المرأة الجالسة أمامكم تُنقذ حياة الكريتيين من موت مُحتم، كم من المرات كانت المدافع جاهزة للإطلاق، وكنت أهرع لأمسك بلحيته وأرجوه ألا يفعل بوم! بوم! ولكن من الذي شكرني على ما فعلته من أجلهم؟ وبدلاً من الوسام انظروا ما حصلت عليه.

لقد كانت مدام هورتنس غاضبة أشد الغضب لجمود الرجال، وضربت على

الطاولة بقبضتها الطرية. ومد زوربا يده إلى ركبتيها المنفرجتين وأمسك بهما، بعطف مصطنع وصاح:

- يا بوبولينتي، بحق السماء لا تفعلي بوم! بوم! ارفع يدك.

كذلك صاحت به السيدة الطيبة، وأضافت بعد قليل:

- من تظنني؟

وحدجته بنظرة غاضبة..

- إن الله موجود في السماء لا تزعجي نفسك، يا بوبولينتي، فنحن هنا يا حبيبة، لا تخافي.

ورفعت عروس البحر العجوز، عينيها إلى السماء ورأت ببغائها الأخضر يغط في النوم، وقالت بصوت حنون:

- كانافارو، كانافارو.

وما إن سمع الببغاء صوت سيدته حتى فتح عينيه وأمسك بقضبان القفص وردد قولها:

- كانافارو، كانافارو.

- موجود!

صاح زوربا وهو يضع يده من جديد على تلك الركبتين اللتين خدمتا كثيرا، كأنه يريد امتلاكهما. واستدارت المغنية العجوز على كرسيها وفتحت فيها لتقول:

- وأنا أيضا حاربت ببسالة، لقد حاربت صدرا بصدر، لكن الأيام العصيبة جاءت وتحررت كريت بعد أن تلقت الأساطيل الأوامر بالانسحاب. (ولكن ماذا سأصير إليه؟) كذلك قلت وأنا امسك باللحى الأربعة. (أين ستتركونني؟ لقد تعودت على العظمة وعلى الشمبانيا، والدجاج! لقد اعتدت على البحارة

الصغار وهم يؤدون لي التحية العسكرية حين أمر أمامهم، سأصبح أرملة أربعة مرات، يا سادتي الأعزاء) ولكنهم سخروا مني... هكذا هم الرجال. لقد أشبعوني بالليرات الإنكليزية والإيطالية، والروبلات والفرنكات التي وضعوها في جواربي، وقميصي وحذائي. وفي الليلة الأخيرة بكيت كثيرا حتى أن القواد الأربعة أشفقوا علي، فملئوا المغطس بالشمبانيا، ووضعوني به، ثم شربوا على شرفي وسكروا، وبعد ذلك أطفئوا النور، وفي الصباح استيقظت على رائحة العطور الممزوجة تفوح في الغرفة، رائحة البنفسج والكولونيا وغيرها.. لقد كنت ممسكة بالدول الأربعة: إنكلترا، فرنسا، روسيا، وايطاليا، وعلى ركبتي، هنا على ركبتي، وذهبت هكذا معهم.

ثم راحت مدام هورتنس تهز بيديها كأنها تلاعب طفلا صغيرا على ركبتيها، ثم قالت:

- هكذا، هكذا. وعند انبلاج الصباح راحت المدافع تطلق في الهواء. وأقسم أن ذلك كان على شرفي، نعم أطلقوا المدافع، وجاء زورق صغير أبيض ليقلني إلى الشاطئ.

ثم تناولت منديلها وراحت تمسح بدموعها وتبكي، وهتف زوربا:

- أغمضي عينيك يا بوبولينتي الصغيرة، أغمضي عينيك يا كنزي. فأنا هو كانافارو!

وصرخت السيدة الفاضلة:

- ارفع يدك، لقد قلت لك ذلك، وانظر إلى نفسك، أين شاراتك الذهبية؟ والقبعة واللحية المُعطرة... آه... آه.

لقد بدأ الطقس يبرد، وساد صمت حولنا، وكان البحر من وراء القصب يتنهد. لقد سادت الطمأنينة والهدوء أخيراً. فالريح سكنت والشمس غرقت عند الأفق لتنام. ومر من فوقنا غرابان يصفقان بأجنحتهما كأن قصر من الحرير تمزق، ربما كان قميص مغنية!!

همهم زوربا بعطف وهو يضغط بركبته على ركبتها:

- يا بوبولينا، لا تضطربي، ارفعي رأسك الصغير، واسندي خدك على يدي وانشدي لنا أغنية، وليذهب الموت إلى الجحيم.

لقد كان زوربا يشتعل بالحب، وكانت يده اليسرى تفتل شاربه، بينما يده اليمنى تنساب على المغنية المنتشية، وكانت كلماته تنطلق متقطعة وعيناه واهنتان. ولم تكن هذه العجوز المطلية بالمساحيق هي التي تُثيره، بل إنه كان يرى آفاق متمثلاً، الجنس الأنثوي بأجمعه، كما كان يدعو المرأة. لقد اختفى القرد، وانمحى الوجه سواء أكان فتياً أم هرماً، جميلا أم بشعا، فهذه كانت اختلافات لا أهمية. إن خلف كل امرأة يقف وجه أفروديت المقدس الغامض.. هذا هو الوجه الذي كان يراه زوربا، ويحدثه ويشتهيه. أما مدام هورتنس فلم تكن سوى قناعا شفافا سريع الزوال يمزقه زوربا ليقبل الشفاه الخالدة.

وردد في صوت متضرع هامس:

- ارفعي عنقك الناصع، يا كنزي، ارفعي العنق الأبيض وأنشدينا بأغنية جميلة..

ووضعت المغنية العجوز يدها على خدها، وراحت تنشد أغنية من أغنياتها القديمة، وقفز زوربا وأحضر السانتوري، جلس متربعا على الأرض ثم صاح بأعلى صوته:

- آوه، آوه، خذي سكينا واقطعي به عنقي، يا بوبولينتي.

وعندما بدأ الليل يقترب، وبدأت النجوم تتألق بالسماء، وبعد أن ملأت النشوة نفوسهما، ابتدأت مدام هورتنس تتقلب وتلتصق بزوربا برفق ودلال، ونظر إليَّ مُشيرا وهمس بقوله:

- لقد بدأت تنسجم، كُن لطيفاً واتركنا لوحدنا.

الفصل الرابع

عندما انبلج الصباح استيقظت لأرى زوربا أمامي جالساً عند طرف السرير يُدخن وهو غارق في بحر من التأملات، وعيناه مُسمرتان على زجاج النافذة، وتذكرت أني تركتهما لوحدهما ليلة البارحة وقُلت له: .

- إني ذاهب، يا زوربا، تمتع جيدا، وتشجع.

وقد قال لي:

- إلى اللقاء أيها الرئيس، اتركنا نُرتب الأمر جيداً.

وقد بدا لي أنهما رتبا الأمر جيداً فقد سمعت في الليل أصواتاً مكتومة، واهتزازات في الغرفة المجاورة، وبعد مُنتصف الليل دخل زوربا إلى غرفتنا عاري القدمين وانطرح على السرير بكثير من الهدوء كي لا يوقظني، ولكنه الآن عند الفجر يبدو شارداً، وعيناه تضيعان بعيداً، وكان لا يزال غارقاً في نشوة الليل الفائت مُستسلماً بهدوء إلى شعاع الشمس المُتداخل من زجاج النافذة.

وبدأت القرية تفيق من نومها، وبدأت الحركة تدب في الأزقة ممتزجة بأصوات الديوك والخنازير، والحمير، والناس. وخطر لي أن اقفز من سريري وأصرخ: "هيا يا زوربا فلدينا عمل اليوم"، لكني كنت اشعر أنا الآخر بسعادة كبيرة في الاستسلام هكذا دون حراك منتظرا تسرب الفجر الرائع، ففي هذه اللحظات الساحرة تبدو الحياة، خفيفة كالغبار، وتبدو الأرض كأنها تتكون من الريح كالغيوم المتموجة الطرية... ونظرت إلى زوربا وهو يدخن، فشعرت برغبة في التدخين أنا الآخر، فتناولت غليوني، وحدقت به مُنفعلا.. إنه غليون إنكليزي الصنع، كان صديقي القديم قد أهداني إياه، وتذكرت قوله حين منحني هديته تلك:

"خذ هذا الغليون واترك السجائر التي تدخن نصفها وترميها بعد ذلك كأنها امرأة عاهرة، تزوج الغليون فهو كالزوجة الوفية، فعندما تعود لبيتك ستجده دوماً هناك بانتظارك فتُشعله وتجلس تتأمل دخانه الصاعد بالهواء وتذكرني.."

مازلت أذكر أن الوقت كان ظهراً، وكُنا في أحد متاحف برلين، حيث كان صديقي يودع لوحته العزيزة (المحارب) للرسام رامبراندت، ونظر صديقي إلى تلك اللوحة متأملا المحارب الحاقد اليائس، وقال: "إذا ما تمكنت من القيام في حياتي بعمل جدير بالرجل، فسأكون مدينا به له!!"

كُنا في صالة المتحف، نقف وأمامنا تمثال من البرونز لفارسة عارية تمتطي حصانا بريا متوحشا. وغط عصفور على رأس التمثال والتفت صوبنا وهز بذنبه وأطلق لحنا هازئاً ثم طار في سبيله. وارتعدت وأنا انظر إلى صديقي وسألته:

- هل سمعت العصفور؟ لقد خلت أنه قال لنا شيئا، ثم طار في سبيله.

وابتسم صديقي وأجابني بمثل من أمثالنا العامة: (إنه عصفور، دعه يُغني، إنه عصفور، دعه يتكلم).

كيف كانت، في هذه اللحظة عند طلوع الفجر، عند شاطئ كريت هذه الذكرى تعود إلى مخيلتي مع هذا المثل الحزين لتملأ عقلي بالمرارة؟

ووضعت قليلا من التبغ في غليوني وأشعلته. إن كل شيء في هذا العالم له معان خفية. الرجال. الحيوانات. الشجر. النجوم، إنها تبدو كالرموز الهيروغليفية لمن بدأ في حل رموزها ليكتشف خفاياها؛ فعندما تراها فإنك لا تفقه لها معنى، ولكن بعد مرور السنين وبعد فوات الأوان تفهم معناها الحقيقي.

ورحت أتابع الدخان المتصاعد من الغليون، وكانت روحي تندمج بهذا الدخان، وتتلاشى معه في الحلقات الزرقاء المكونة. ومر وقت طويل، كنت أشعر، دون العودة إلى المنطق، وبتأكيد لا يوصف، بحقيقة هذا العالم وانبثاقه وزواله.

وأطلقت زفرة هادئة أيقظتني من أفكاري الشاردة، فنظرت إلى ما حولي إلى هذا الكوخ الخشبي الفقير، وهذه المرآة الصغيرة المتدلية على الحائط والمنعكس عليها شعاع الشمس، فبدت تقدح بالشرر. وكان زوربا لا يزال جالسا على حافة السرير يدخن بهدوء مُديرا لي ظهره.

ومرت أحداث الأمس بمخيلتي، رائحة البنفسج والكولونيا، والمسك والببغاء الذي بدا كالرجل قد تحول إلى ببغاء يضرب قفصه بجناحه مناديا حبيبا قديما، وسفينة قديمة، لا تزال الوحيدة الباقية على قيد الحياة لتقص أقاصيص الحرب والمعارك البحرية القديمة...

واستدار زوربا عندما سمع صوت زفرتي، وتمتم قائلا:

- لقد أسأنا التصرف، لقد أسأنا التصرف أيها الرئيس. لقد ضحكت، وكذلك فعلت أنا، وقد رأتنا هي، وهذه الطريقة التي غادرتنا بها دون أن تنبس بكلمة رقيقة واحدة. يا للعار اللعين! إن هذا ليس تهذيبا، أيها الرئيس. وهذه ليست طريقة حسنة للتصرف، اسمح لي أن أقول لك. إنها امرأة على كل حال. أليس كذلك؟ مخلوقة ضعيفة خائفة. وقد عملت جيداً حين بقيت لأعزيها.

- ولكن ما تعني بقولك يا زوربا؟ وهل تعتقد بكل جدية أن جميع النساء ليس في عقولهن شيء سوى هذا؟

نعم أيها الرئيس، فليس في عقولهن شيء آخر، أصغ إلي الآن، لقد رأيت جميع الأشياء، وعملت في كل شيء.. إن المرأة ليس عندها من شيء آخر في نظرها. إنها مخلوق ضعيف مشاكس. وإذا لم تقل لها أنك تحبها وتريدها فإنها تبدأ في البكاء. وربما هي الأخرى لا تريدك إطلاقاً، بل ربما تحتقرك وربما تقول لك كلا، فهذه مسألة أخرى لكن جميع الرجال الذين يرونها يجب إن يشتهونها، فهذا ما تريده تلك المخلوقة المسكينة، لذلك فالأجدر أن تحاول إرضاءها. فأنا مثلاً، كانت لي جدة تبلغ الثمانين من عمرها. إن قصتها حقيقية تماماً. وكانت تسكن

قريبا من منزلنا فتاة صبية نضرة كالوردة، واسمها كريستالو. وفي كل يوم سبت عند المساء، كنا نحن الشباب نذهب إلى الحانة لنحتسي كأسا من الخمر وننتشي به، ثم نضع ضمة من الحبق وراء أذننا ويأخذ ابن عمي قيثارته ونذهب للتنزه. يا للحب يا للعاطفة.. كنا نخور كالبقر وكنا نريدها وكل يوم سبت كنا نتوجه لها مرة واحدة ليقع اختيارها على واحد منا. حسنا.. هل تصدق هذا أيها الرئيس؟ يا له من لغز؟ إن في النساء جرحا لا يلتئم بالمرة. كل الجروح تشفى إلا هذا. لا تعتمد كثيرا على كتبك.. إنه لا يلتئم أبدا. لماذا.. لأنها قد أصبحت في الثمانين؟ ومع ذلك فالجرح لا يزال مفتوحا. إذن كل سبت كانت العجوز المتصابية تجر أشياءها نحو النافذة. وتتناول مرآتها الصغيرة وتحاول تسريح ما تبقى من شعرها وتنشره على فرقتين فوق جمجمتها، ومن ثم تختلس نظرات سريعة حولها خوفاً من أن يُشاهدها أحد، وإن اقترب أحد منها، تندفع إلى الوراء لتستكين بهدوء وتدعي النوم. ولكن كيف كانت تستطيع النوم؟ فإنها بانتظار النزهة وهي في الثمانين من عمرها.. هل ترى الآن هذا اللغز المجهول في المرأة أيها الرئيس؟ إن هذا يشدني الآن للبكاء. أما في ذلك الوقت فقد كنت تافها، ولم أفهم هذا. وهذا ما كان يدفعني للسخرية، في أحد الأيام غضبت منها، لقد كانت توبخني لأنني كنت أجري خلف الفتيات. عندها صحت في وجهها دون مواربة وبكل صرامة !! لماذا تُدلكين شفتيك بورق الجوز كل سبت. وتسرحين شعرك. أتظنين بأننا نتنزه من أجلك؟ إننا نأتي من أجل كريستالو. أما أنت فلست إلا جيفة نتنة. هل تصدق أيها الرئيس؟ في ذلك اليوم عرفت فقط ما هي المرأة. دمعتان دفقتا من عيني جديتي. انكمشت كأنها كلبة، وراحت ذقنها ترتجف. وصحت "كريستالو" واقتربت منها أكثر لكي تتمكن من أن تسمعني بوضوح: "كريستالو".. إن الشباب حيوانات قاسية، إنهم ليسوا من المخلوقات الإنسانية، لا يفهمون شيئاً. عندها رفعت جدتي ذراعيها النحيلتين نحو السماء وصاحت "عليك اللعنة من أعماق قلبي"، ومنذ ذلك اليوم بدأت صحتها تتلاشي وتتدهور، وبعد شهرين كان يومها قد بدأ يقترب. وبدت أيامها معدودة.

وعندما كانت تحتضر شاهدتني. فشهقت كأنها حشرة وحاولت أن تمسكني بأصابعها وقالت "لقد كنت أنت من أنهى حياتي. فليلعنك الله يا أليكسيس ويجعلك تُعاني كل ما عانيته أنا"

وابتسم زوربا وتابع:

- آه، إن لعنة العجوز قد أصابت هدفها.

وراح يُصلح من حال شاربه وتابع قائلاً:

- إنني بالخامسة والستين الآن، ولو عشت حتى المائة فلن أتقاعد، فسأظل أحمل المرآة الصغيرة في جيبي، وسأبقى أجري خلف النساء.

وابتسم ثانية، ورمى سيجارته من النافذة، ومد ذراعيه قائلا:

- لي أخطاء غير هذه كثيرة، إلا أنها الوحيدة التي سوف تقضي علي.

وقفز من سريره وصاح:

- لقد تحدثنا بما فيه الكفاية اليوم. يجب أن نستغل اليوم.

وارتدى ثيابه وحذاءه بمثل لمح البصر وخرج، برأس محني، رحت أستعيد كلمات زوربا، وفجأة لمعت في رأسي، مدينة مُغطاة بالثلوج، كنت في معرض لأعمال "رودان "وتوقفت لأنظر إلى يد برونزية ضخمة "يد الله" كانت اليد نصف مفتوحة. وفي نصف الراحة كان يوجد رجل وامرأة متعانقان يكافحان.

جاءت فتاة واقتربت مني. وكانت تبدو غير مستكينة ومضطربة، وراحت تنظر إلى ذلك العناق الأبدي بين الرجل والمرأة. كانت نحيلة، أنيقة، وكان لها شعر أشقر كثيف. وذقن قاسية وشفاه ناعمة كان باديا عليها التصميم والرجولة. كان في طبيعتي عدم البدء بالحديث. ولكن لا أدري ما الذي دفعني لأن ألتفت نحوها وأسألها: .

- بماذا تفكرين؟

فتمتمت بسرعة:

- آه.. لو نستطيع أن نهرب!!

- وأين نذهب، فيد الله في كل مكان. فلا يوجد أي مهرب. هل أنت آسفة؟

- كلا؛ فالحب قد يكون أكبر مُتعة في الوجود. هذا ممكن. إنما الآن فأرى تلك اليد البرونزية. فأفكر بالهرب.

- أتفضلين الحرية؟

- أجل.

- ولكن لنفترض بأننا عندما نُطيع تلك اليد نشعر بأننا أحرار. لنفترض بأن كلمة "الله" ليس لها المعنى الذي تمنحه له الجماهير.

نظرت إلي بقلق وبدت عيناها رماديتان، وشفتاها جافتين مرتين.

- لم أفهم.

قالت وابتعدت بسرعة.. اختفت، ومن ذلك الوقت لم أفكر فيها مطلقاً ولكن لا بد وأنها كانت تعيش في داخلي، واليوم على هذا الشاطئ المهجور ظهرت من جديد شاحبة نحيلة، من أعماق كياني.

نعم لقد كان تعرفي غير لائقا، كان زوربا على حق، فاليد البرونزية كانت حجة، فالاتصال الأول قد تم. وكانت الكلمات اللطيفة قد تبدلت وكان من الممكن تدريجياً أن نتعانق ونتحد بهدوء ودون إزعاج في يد الله. إلا أنني قفزت فجأة من الأرض نحو السماء. فارتعشت الفتاة وهربت.

كان الديك العجوز يصيح في باحة حديقة السيدة هورتنس، وأنوار الصباح الجديد قد بدأت تزحف عبر النافذة الصغيرة وانحدرت من الفراش. كان العمال قد

بدءوا يغدون حاملين معاولهم ومجارفهم، وراح يتناهى لمسامعي صوت زوربا يُصدر الأوامر. فقد انغمس في العمل بسرعة فائقة. إذ أن الإنسان يشعر بأنه يعرف كيف يأمر، ويحب المسؤولية.

مددت رأسي من النافذة الصغيرة وشاهدته واقفاً هُناك، كأنه عملاق بين ثلاثة من العُمال النحيفين، القُساة، السمر. كانت يده ممدودة بقسوة وكانت كلماته مُختصرة وفي صُلب الموضوع.

وبعد قليل أمسك بعنق فتى صغير كان يتقدم مُتمتما بصوت خفيض، فصاح زوربا:

- هل عندك شيء لتقوله؟ هيا قله بسرعة وبصوت عال، فأنا لا أحب الدمدمة، يجب أن تكون مُستعداً للعمل وإلا عُد إلى الحانة.

عندها ظهرت السيدة هورتنس بشعر مُشعث وخدين غائرين، لأنها لم تضع أي مسحوق على وجهها. وكانت ترتدي ثوبا طويلا قذرا، وتنتعل زوجا من الأحذية الطويلة المتهرئة. وسعلت سعالا قاسيا كسعال مغنية سابقة، كأنه نهيق حمار، توقفت ونظرت نحو زوربا بكل فخر وكبرياء، ومضت عيناها، فسعلت من جديد، متى يلحظها، ومرت بقربه، تهز وتحرك ردفيها بإثارة مصطنعة، أكمامها الوسخة كادت تلمسه، إلا أنه لم يتحمل مشقة النظر إليها، وأخذ قطعة من خبز الشعير وقبضة من الزيتون وصاح بالعمال:

- الآن أيها الرجال.. باسم الله، ارسموا علامة الصليب.

وسار بعيدا يتقدم الرجال بخط طويل نحو الجبال. لن أصف هنا العمل في المنجم؛ فهذا يحتاج لصبر طويل، وأنا ينقصني الكثير منه، قرب البحيرة بنينا كوخا من القصب والخيزران وبقايا صفائح البنزين، كان زوربا يستيقظ عند الفجر، ويتناول معوله، ويذهب إلى المنجم قبل كل العمال، ويفتح نفقا جديدا، ويكتشف عرقا من

الفحم ويرقص من الفرح. إلا أنه بعد يومين أو ثلاثة يتوه عن العرق فيصيح ويرمي نفسه على الأرض ويرفع رجليه ويلوح بهما نحو السماء كأنه يسخر أو يهزأ.

كان يعمل بكل إخلاص. ومنذ اليوم الأول تحولت كامل المسؤولية عبر يدي ليستلمها هو بكل شجاعة، كان عمله هو أن يتخذ القرار وأن يضعه قيد التنفيذ، وكان عليَّ تحمل العواقب. إلا أن هذه التدابير ناسبتني أكثر لأنني شعرت بأن هذه الشهور ستكون أسعد أيام حياتي، وباعتبار كل هذا شعرت بأنني أشتري سعادتي بثمن زهيد.. كان جدي والد أمي الذي كان يسكن في إحدى قرى جزيرة كريت اعتاد أن يحمل كل ليلة فانوسه ليدور في شوارع القرية، عله يُصادف أحد الغرباء. فيصطحبه إلى المنزل ليقدم له الطعام والشراب، ومن ثم يجلس فوق أريكته المعتادة ويشعل غليونه التركي، ويلتف نحو ضيفه، الذي حان الوقت لكي يرد له الضيافة، ويقول بلهجة واثقة قاسية: "هيا... تكلم..."

- أتكلم... عن ماذا أيها الأب موستويورجي؟
- ماذا تكون؟؟ من تكون؟؟ من أين أنت؟؟ عن المدن والقرى التي زرتها؟؟ كل شيء، حدثني عن كل شيء. هيا تكلم.

ويبدأ الضيف بالحديث دون هدف، ليخلط بين الحقائق والأساطير، بينما يكون جدي جالسا بهدوء فوق أريكته يدخن غليونه، يصغي لضيفه بكل جوارحه ومتابعا له في جميع أسفاره. وإن أحب الضيف، فسوف يقول له:

- ستبقى يوم غد أيضاً، لن ترحل، فقد بقي عندك أشياء كثيرة لتقصها علي.
- لم يترك جدي قريته أبداً، حتى إلى كانديا أو كانيا (لماذا أذهب لهناك) كان يقول إن بعض أهالي كانديا وكانيا، يمرون من هنا. وهكذا فكانديا وكانيا يأتون إلي. إذن لماذا أذهب أنا إليهم؟! على هذا الشاطئ الكريتي أتبع أنا عادة جدي. أنا أيضا قد وجدت ضيفي بعد أن بحثت عنه مع قنديلي. وسوف لن أدعه يرحل. بالطبع هو يكلفني أكثر من مجرد عشاء، إلا أنه يستحق كل هذا،

كل مساء أنتظر عودته من العمل، وأجلسه أمامي ونلتهم طعامنا. وحين يحين الوقت ليرد لي الضيافة أقول له "تكلم"، وأدخن غليوني وأصغي. هذا الضيف قد شاهد العالم بأسره وخبر الروح البشرية. وأنا لا أملّ أبدا الإصغاء إليه.

- تكلم يا زوربا... تكلم.

وعندما يبدأ حديثه تبدو أمام ناظري "ماسيدونيا" حيث تمتد في الفسحة التي بين زوربا وبيني، بجبالها وغاباتها وسيولها وثوارها ونسائها الذين يعملون بجد ورجالها ذوو الأجسام الضخمة. وأيضا جبل آتوس بأبرشياته الواحد والعشرون ومصانع الأسلحة، وسكانه العاطلين عن العمل. وعندما ينهي زوربا حديثه عن الرهبان يهز رأسه ويغرق بالضحك قائلا:

- ليحفظك الله أيها الرئيس من مؤخرات البغال ومقدمات الرهبان.

كل يوم يأخذني زوربا عبر اليونان، بلغاريا والقسطنطينية. فأغمض عيني، وأرى. كأنه قد جال كل سهول البلقان وعاينها بعينيه الصغيرتين اللتين كان يفتحهما بدهشة وتعجب، أشياء اعتدنا عليها، تمر أمامنا بكل بساطة. وفجأة تقفز أمام زوربا كأنهم مردة مخيفين. وعندما يشاهد امرأة تمر أمامنا، يتوقف بذهول ويتساءل:

- يا لهذا اللغز المحير! ما سر المرأة؟.. لماذا تدير رؤوسنا؟ هيا أخبرني.. أنا أسألك ما معنى هذا؟؟

إنه يستجوبني بهذه الطريقة، وبمثل هذا الذهول، كلما لمح رجلا، شجرة في أوجها أو قدحا من الماء البارد. إن زوربا يرى يوميا كل هذه الأشياء وكأنه يراها لأول مرة.

بالأمس كنا جالسين قرب الكوخ، عندما عب كأسا من الخمر، والتفت نحوي بسرعة قائلا:

- مهما يكن هذا السائل الأحمر، أيها الرئيس أخبرني، أغصان قديمة تنبت أغصانا، وفي بادئ الأمر بعض الحصرم الحامض يتدلى فيها. ويمر الوقت وتنضج تحت أشعة الشمس، ويُصبح بحلاوة العسل. عندها ندعوه عنبا. وندوسهم بأرجلنا ونقطر عصيرها ونضعهم في براميل خشبية، فيختمرون من تلقائهم، ونفتحها في عيد القديس يوحنا السكير ونجدهم قد أصبحوا نبيذا. إنها معجزة. وعندما تشرب هذا السائل الأحمر وينتفخ دماغك، وتشعر بأن روحك تكبر، تكبر على الهيكل العظمي القديم، وتتحدى للقتال، أخبرني أيها الرئيس كيف يتم كل هذا.

لم أجب.. شعرت وأنا أصغي لزوربا بأن العالم يتكشف من جديد:

- كل الأيام القاسية قد عادت لها حيويتها كما كانت في بداية التاريخ عندما خرجنا من بين يدي الله. الماء، النسوة، النجوم والخبز، كلها عادت المحير والدوامة الإلهية عادت لتدور في الجو من جديد.

لهذا، كُنت كل مساء، أتمدد على الشاطئ بانتظار زوربا. فأراه يخرج بقوة من بطن الأرض بجسده المليء بالوحل والأقذار وخطواته الواسعة من بعيد، كنت أستطيع أن أشاهد كيف كانت نتيجة العمل اليوم، من طريقة سيره، من انتصاب رأسه عاليا أو انخفاضه ومن حركات يديه المتأرجحتين.

أول الأمر كنت أرافقه لأراقب العمال، كنت أجهد نفسي في محاولة لتغيير مجرى حياتي، لأشغل نفسي في حياة عملية، لأعرف وأحب المادية الإنسانية التي وقعت بين يدي، لأختبر وأشعر بالمتعة التي انتظرتها طويلا لا مجرد كلمات أقرأها أو أكتبها بل مع رجال على قيد الحياة.

ورسمت بعض الخطط الرومانتيكية، فيما لو نجح مشروع التنقيب عن الفحم. سوف أُنظم نوعا من المنظمات الاجتماعية حيث نشترك في كل شيء.

وحيث سنأكل جميعنا نفس الطعام، ونرتدي نفس اللباس كأننا أخوة، وخلقت في رأسي أمرا دينيا جديدا، نواة لحياة جديدة.

ولكني لم أكن قد قررت بعد أن أفاتح زوربا بمشروعي، لقد كان ينزعج من ذهابي ومجيئي بين صفوف العمال. أسأل وأتدخل، ودائما لصالح العمال. عندها يقلب زوربا شفتيه قائلا:

- أيها الرئيس ألن تذهب في نزهة بعيدا من هنا، ألا ترى الشمس والبحر هناك؟

- في بادئ الأمر كُنت أصر على البقاء وأبقى، كنت أسأل وأثرثر، أردت أن أعلم قصة حياة كل رجل. كم من الأولاد لديهم يجب أن يعيلوهم وأخوات ليزوجوهم وأقرباء ليس لهم من معين. بماذا يهتمون، والأمراض وكل ما يُقلقهم.

- لا تغوص هكذا في تاريخ حياتهم. أيها الرئيس، سوف تندفع نحوهم بقلبك الرقيق، وسوف تحبهم أكثر مما يجب لمصلحتك ومصلحتهم، ومهما سوف يفعلون ستخلق لهم الأعذار. عندها فلتساعدنا الآلهة، فسوف يُهملون عملهم، ويقومون به بأي طريقة يريدونها، وعندها فليساعدنا الله أيضا. يجب أن تدرك هذا جيدا، عندما يكون الرئيس قاسيا عندها سيحترمه العمال ويعملون بجد، وعندما يكون ناعما يتركون كل شيء عليه ويمضون وقتا طيبا، هل تفهم هذا؟

في إحدى الأمسيات، بعد انتهائه من العمل، رمى بمعوله في الظل وصاح قائلا بعد أن نفد صبره:

- انظر هنا، توقف عن التدخل، بالسرعة نفسها التي أبني فيها أنت تهدم كل شيء.. والآن ما هذا الذي كنت تتحدث عنه اليوم مع الرجال؟ اشتراكية وهراء؟ هل أنت واعظ أم رأسمالي؟ يجب أن تقرر، ولكن كيف أستطيع أن أختار؟.. لقد كنت أحاول جهدي أن أجمع بين هذين الشيئين، لأجد طريقة تجمع بين هذين التناقضين ولأنجح في الحصول على كل من الحياة في الأرض وملكوت السماوات، كان هذا يتعامل داخلي منذ سنوات حتى منذ الأيام الأولى لطفولتي.

عندما كنت لا أزال في المدرسة، حيث كنت قد نظمت مع أقرب أصدقائي جمعية سرية تدعى "المجتمع الودي" هذا كان الاسم الذي أطلقناه عليها. وداخل غرفة نومي المغلقة أقسمنا اليمين لنكرس حياتنا من أجل محاربة الظلم. دموع غزيرة انهمرت فوق وجوهنا عندما أقسمنا اليمين وأيدينا فوق قلوبنا.

مبادئ صبيانية، ولكن يا لتعاسة من يسخر منها عندما يسمعها، ولكن عندما شاهدت ما صار إليه أعضاء هذه المنظمة، من أطباء مدعين، ومحامين غشاشين، وأصحاب محلات، سياسيين دجالين وصحفيين خونة، غاص قلبي، إن مناخ هذه الأرض قد أصبح جلف وقاس، وأثمن البذور لا تنمو وتختفي تحت الأرض وبين الشوك والقراص. أستطيع أن أرى بكل وضوح اليوم، بالنسبة لنفسي، لم أصبح معقولا بعد، ولكن ليتمجد اسم الرب، أشعر بأنني لا أزال مستعدا لأقوم ببعض المغامرات الدونكيشوتية.

كنا أيام الآحاد نحضر أنفسنا بكل عناية وكأننا شابين يُحضران نفسيهما للزواج، ونُحلق ونرتدي قمصاناً بيضاء، ونتوجه بعد الظهر لرؤية السيدة هورتنس، كانت كل يوم أحد تذبح لنا طيرا، وكنا أكثر الأحيان نجلس ثلاثتنا لنأكل ونشرب، وتمتد يد زوربا إلى صدر السيدة المضياف ليمتلكه. وعندما يحل الليل نعود إلى شاطئنا. كانت الحياة تبدو بسيطة ومليئة بالنوايا الحسنة تماما كالسيدة هورتنس..

وذات أحد وبينما كنا عائدين من وليمتنا الممتعة، قررت أن اخبر زوربا بمشاريعي. أصغى إلي مجبرا نفسه، وضاغطا عليها ليكون صبورا كفاية. إلا أنه من وقت لآخر كان يهز رأسه الضخم بغضب ظاهر.. كلماتي الأولى جعلته يصحو من سكره، وطردت الخمر من رأسه. وعندما انتهيت نزع بعصبية شعرة أو شعرتين من شاربه وقال:

- اعذرني لما سأقوله أيها الرئيس، ولكن لا أعتقد أن عقلك قد اكتمل بعد.. كم تبلغ من العمر؟

- خمسة وثلاثين سنة.

- إذا فهو لن يكتمل أبدا.

وانفجر مقهقها، وصحت به:

- ألا تؤمن بالإنسان؟

- والآن لا تندفع غاضبا أيها الرئيس، فأنا لا أؤمن بأي شيء، فلو كنت أؤمن بالإنسان لآمنت بالله ولكنت آمنت بالشيطان أيضاً، وهذه هي كل المشكلة حيث تختلط الأشياء وتُسبب لي كثيراً من التعقيد.

وخيَّم عليه الصمت، وانتزع قبعته وحك رأسه بقوة وشد شاربه كأنه يريد أن ينتزعه من مكانه. كان يريد أن يقول شيئا، إلا أنه منع نفسه ونظر إلي من زاوية عينه، ومن ثم نظر إلي ثانية وقرر أن يتكلم. وصاح ضاربا الأرض بعصاه بقسوة:

- الإنسان ليس إلا بهيمة. بهيمة كبيرة. إلا أن سعادتك لا تدرك هذا أبدا. إذ يبدو بأن كل شيء كان سهلا بالنسبة لك. اسألني أنا فأجيبك بأنه بهيمة فإن كنت قاسيا معه سوف يخافك ويحترمك. وإن كنت لطيفا معه فسوف ينتزع عيونك.. احفظ المسافة بينك وبينهم، لا تجعل الرجال أقوياء هكذا. لا تمشي بينهم وتقول لهم بأننا كلنا متساوون، وأن لنا نفس الحقوق، وإلا سوف يدوسون على حقوقك أنت. سوف يسرقون خبزك ويتركونك تموت من الجوع، احفظ مركزك أيها الرئيس من أجل الخير الذي أتمناه لك.

- ولكن ألا تؤمن بشيء؟

- كلا لا أؤمن بشيء بالمرة. كم مرة يجب أن أكرر هذا. فأنا لا أؤمن بأي شيء أو بأي شخص. بل بزوربا وحده، ليس لأن زوربا أحسن من غيره، كلا فهو بهيمة كغيره. ولكن لأن زوربا هو الوحيد الذي يقع تحت سلطتي، والوحيد الذي أعرفه. أما الباقون فكلهم أشباح، فانا أرى بهاتين العينين، وأسمع بهاتين

الأذنين، وأهضم بهذه المعدة. كل الباقين أشباح أقول لك، عندما أموت، فسوف يموت كل شيء معي. كل العالم الزوربي سوف يغوص في الأعماق.

فقلت ساخراً:

- يا لها من أنانية.

- لا أستطيع معها شيء. آكل فاصولياء فأتحدث عن الفاصولياء، أنا زوربا فأتحدث عن زوربا.

لم أقل شيئا. كلمات زوربا لسعتني كالسوط. لقد أدهشتني قوته، لاحتقاره الرجال إلى هذا الحد، وبنفس الوقت رغبته في العيش والعمل معهم، أما أنا فيجب إما أن أصبح ناسكا، أو أزخرف رؤوس الرجال بريش مزيف حتى أستطيع أن أتحملهم.. التفت زوربا نحوي، وتحت ضوء النجوم استطعت أن أرى ضحكة زوربا حتى أذنيه.

- هل أزعجتك أيها الرئيس؟

قال فجأة عندما وصلنا إلى الكوخ. نظر إلي زوربا بعطف وقلق، لم أجب، شعرت بأن عقلي يوافق زوربا إلا أن قلبي راح يقاوم، يريد الانطلاق والهروب من البهيمة، وليسير في طريقه الخاص. قلت:

- لا أشعر بالنعاس هذه الليلة، اذهب أنت لتنام.

كانت النجوم تلمع في السماء، والبحر كان يجعل الأصداف تتلألأ. ولمعت إحدى الأصداف وأضاءت تحت منارتها الصدفية، حيث كان قطر الندى يقطر من شعر الليل الداكن.. تمددت على وجهي، مأخوذ بالسكون، دون أن أفكر بأي شيء، كنت وحيدا بين الليل والبحر، كان عقلي كأنه صدفة أضاءت منارتها واستقرت على ارض الشاطئ الداكنة وراحت تنتظر.

كانت النجوم تسافر وتدور، والساعات تمر، وعندما نهضت، كنت قد قررت، دون أن أعلم، الخطة المزدوجة التي سأتبعها على هذا الشاطئ، أن أهرب من بوذا، وأخلص نفسي من الكلمات الميتافيزيقية وأحرر نفسي من القلق غير المُجدي. أن أقوم باتصالات مباشرة مع الرجال وأبدأ من هذه اللحظة، وقلت لنفسي: (ربما لم يفت الأوان بعد).

الفصل الخامس

قال الصبي:

- إن العم أناجنوستي يحييكما ويدعوكما لتناول الغداء في بيته، وستعد لكما زوجته السيدة ماروليا طعاماً خاصاً، ثُم إن اليوم هو عيد ميلاد حفيدهما (ميناس) ويُمكنكما أن تهنئاه وتتمنيا له السعادة وطول العمر.

إن من بواعث السرور أن تدخل بيت فلاح كريتي وترى نظامه التقليدي، المدفأة والمصباح الزيتي والأواني الخزفية والمقاعد القليلة ومائدة الطعام وإناء الماء الموضوع في كوة الجدار، وحزم الثوم والرمان والتوابل المتدلية من أعمدة السقف، والمصطبة القائمة بأقصى الغرفة عليها الفراش وفوقه الأيقونات المقدسة وصورة السيدة العذراء، والبيت بهذا الأثاث يبدو عادياً، ولكنه يحتوي على كل ما يحتاجه الإنسان وما أقل الأشياء التي يحتاجها الإنسان فعلاً.

وكان اليوم رائعاً، ويُزيد من روعته رقة شمس الخريف؛ فجلسنا في حديقة صغيرة أمام البيت، تحت شجرة زيتون مثقلة بالثمار، وكان البحر يتألق أمامنا من بعيد ويبدو هادئا ساكنا. بينما السحب تمر فوق قرص الشمس بين وقت وآخر، فتكتئب الأرض تارة وتبتهج تارة أخرى.

وتناول حديثنا الموضوعات الخالدة المألوفة، محصول القمح والكروم والأمطار، وكان رب الدار ثقيل السمع فاضطررنا لرفع أصواتنا إلى حد الصياح، وكنت حياة العم أناجنوستي قد سارت في طريق هادئ مُستقيم، كحياة شجرة في واد أمين، فقد ولد وترعرع وتزوج ورزق بأولاد وامتد به العُمر حتى رأى أحفاده، صحيح أن بعض الأحفاد قد ماتوا، ولكن البعض الآخر كان على قيد الحياة مما يضمن استمرار الأسرة..

وتحدث الكريتي الشيخ عن الأيام الخالية وعن الحكم التركي والمعجزات التي حدثت في تلك الأيام لأن النساء كن مؤمنات يخشين الله، قال:

- لقد كان مولدي نفسه مُعجزة، وستدهشون متى ذكرت لكم كيف ولدت، نعم. ستدهشون وسترسمون علامة الصليب على صدوركم وستذهبون إلى دير العذراء مريم وتوقدون الشموع لها.

ورسم علامة الصليب على صدره، ومضى يسرد قصته في صوت هادئ قائلاً:

في تلك الأيام، كانت تعيش في قريتنا امرأة تركية ثرية، وقد حملت هذه المرأة وحان موعد الوضع، فنقلوها إلى فراشها حيث قضت ثلاثة أيام بلياليها وهي تئن وتصرخ ولا تستطيع أن تضع طفلها، وحينئذ نصحتها إحدى صديقاتها بأن تستنجد بالسيدة العذراء، فصاحت المرأة التركية: لماذا؟ إنني أوثر الموت على الاستنجاد بها.

واستمرت الآلام وزادت حدتها، ومر يوم آخر، والمرأة لا تكف عن الصياح.. فما العمل؟ ولم تستطع المرأة احتمال المزيد من الآلام فصاحت بكل قوتها: "يا مريم العذراء.. يا مريم العذراء"، ولكن الألم لم ينقطع، والطفل لم يولد، فقالت الصديقة: "ربما كانت العذراء لا تفهم اللغة التركية". فصاحت المرأة: "يا عذراء الروم.. يا عذراء الروم". وزادت آلامها، فقالت الصديقة: "لعلك تنادينها بغير اسمها، ولهذا لم تأت لنجدتك". فصاحت المرأة: "أيتها العذراء المقدسة"، وجاء المولود على الفور... حدث ذلك في يوم أحد، وفي يوم الأحد التالي، أحست أمي بآلام الوضع. وراحت بدورها تستنجد بالعذراء المُقدسة ولكن دون جدوى. وكان أبي يجلس على الأرض في فناء الدار ولا يستطيع أن يأكل أو يشرب بسبب صراخ أمي وآلامها.. وانقضت ثلاثة أيام دون أن تهب السيدة العذراء إلى نجدة أمي، وفي اليوم الرابع، ضاق أبي ذرعا فحمل فأسه ومضى إلى دير السيدة العذراء وهو يتميز غضباً، وهناك أغلق الباب وراءه ووقف أمام تمثال العذراء المقدسة وصاح:

"أصغي إلي أيتها العذراء، أنت تعرفين زوجتي جيداً فلطالما حملت إليك الزينة والشموع.. إنها تتألم وتستنجد بك مُنذ ثلاثة أيام أفلم تسمعينها؟ لا بد أنك أصبت بالصمم، إذا استنجدت بك إحدى الساقطات التركيات فإنك تُسرعين إلى نجدتها، أما زوجتي المسيحية فإنك تصمين أذنيك، ولا تسمعينها. لولا أنك السيدة العذراء لألقيت عليك درساً بهذه الفأس".

وأولاها ظهره، وهم بالانصراف، ولكنه قبل أن يصل إلى الباب، سمع فرقعة خفيفة صادرة من ناحية الشمال، كما لو كان التمثال يوشك أن يُشطر، والشائع عندنا أن التمثال يُحدث مثل هذا الصوت عندما توشك معجزة أن تقع، فدار أبي على عقبيه، وركع على ركبتيه وهتف:

- لقد أخطأت أيتها العذراء المُقدسة، وقلت أشياء ما كان ينبغي أن أقولها فمعذرة...

وما أن وصل إلى القرية حتى سمع النبأ السعيد، قيل له:

أطال الله عمرك يا قسطندي، لقد وضعت زوجتك ولداً، وقد كُنت أنا ذلك الولد، ولكني ولدت وفي أذني صمم، لأن أبي وصف العذراء بأنها صماء. ولعلها قالت له، صبراً، سأصيب ولدك بالصمم حتى لا تعود إلى مثل هذا الكفر..

ورسم العم أناجنوستي علامة الصليب على صدره مرة أخرى واستطرد قائلاً:

شكرا لله على كل حال، فقد كان يُمكن أن تجعلني السيدة العذراء ضريراً أو معتوها، بل كان يُمكن أن تفعل بي ما هو أسوأ من ذلك – حفظنا الله – فتجعلني فتاة...

فقلت وأنا أرفع قدح النبيذ:

- نخب صحتك أيها العم أناجنوستي.. أسأل الله أن يمد في عمرك حتى تبلغ المائة وترى أحفاد أحفادك.

فاحتسى الشيخ قدحه ومسح شاربه وقال:

- كلا يا ولدي.. إنك تطلب لي الكثير.. لقد رأيت أحفادي، وهذا يكفي.. إن ساعتي تقترب، وما عاد باستطاعتي أن أخلف مزيداً من الأبناء، رغم شدة رغبتي في ذلك، فما قيمة الحياة إذاً بالنسبة لي...؟!

وملأ الأقداح مرة أخرى، وأخرج من حزامه تيناً مُجففا اقتسمه معنا واستطرد قائلا:

- لقد تنازلت لأولادي عن كل ما أملك، ونحن الآن فقراء ولكن لا أتذمر.

وفي هذه اللحظة أقبلت زوجته مارووليا وبيدها إناء مليء بالنبيذ وصحفة عليها طعام من خصي الخنازير؛ فوضعت الشراب والطعام على المائدة وظلت واقفة معقودة اليدين منكسة الرأس.

وأنفت نفسي هذا الطعام فقد كانت الخنازير التي خصيت لا تزال تصرخ في الحظيرة المجاورة ولكني لم أجرؤ على الرفض.

ونظر إليَّ زوربا من ركن عينيه وابتسم في خبث وقال:

- هذا أشهى طبق يُمكن أن تحلم به.

وضحك أناجنوستي العجوز وقال:

- تلك هي الحقيقة.. تذوقه وسوف ترى.. عندما زار الأمير جورج الدير، أقام الرهبان مأدبة تكريماً له وقدموا اللحوم لجميع المدعوين، أما الأمير فقد وضعوا أمامه صحفة مليئة بالحساء، وتناول الأمير ملعقة وراح يُحرك الحساء، وما لبث أن سأل في دهشة: "ما هذا الذي أراه في الحساء؟ فاصوليا". فأجابه رئيس الرهبان: "تذوقها يا صاحب السمو، وسنتحدث عنها فيما بعد"، فتناول الأمير ملعقة ثانية وثالثة حتى أتى على الحساء ثم لعق شفتيه وقال: "يا لها من فاصوليا شهية!".. قال رئيس الرهبان ضاحكا: "إنها ليست فاصوليا يا صاحب السمو، لقد خصينا كُل ديوك المنطقة". وقهقه الشيخ ضاحكاً، وتناول قطعة مما في الصحفة وقال: "هذا طبق خليق بالأمراء.. افتح

فمك". ففتحت فمي؛ فدس فيه القطعة، ثم ملأ الأقداح، وشربنا نخب حفيده الذي يحتفل بعيد ميلاده.

- ماذا تريد أن يكون عليه حفيدك أيها العم أناجنوستي؟ أنبئنا لكي نبتهل إلى الله أن يحقق تمنياتك له.

- وماذا أتمنى له يا ولدي؟ كل ما أرجوه له أن يسلك الطريق المستقيم ويصبح رجلا طيبا ورب عائلة، وأن يتزوج ويرزق أولادا وأحفادا، وأن يكون له ولد يشبهني حتى يقول عجائز القرية: ما أشبهه بأناجنوستي العجوز... رحمه الله... لقد كان رجلا طيبا!

ثم صاح بامرأته دون إن ينظر إليها:

- علينا بمزيد من النبيذ يا ماروليا..

وقبل أن يتم عبارته، فتح باب الحظيرة بعنف واندفع أحد الخنازير إلى الحديقة وهو يصرخ بصوت منكر، فنظر زوربا إلى الخنزير مشفقا وقال:

- إن المسكين يتألم..

فضحك الشيخ الكريتي وقال:

- إنه يتألم طبعا.. هب أنهم فعلوا بك ما فعلوه به، أما كنت تتألم؟

فتحرك زوربا في مقعده بقلق وغمغم:

- قطع لسانك أيها العجوز الأصم.

ووثب الخنزير أمامنا، ونظر إلينا في غضب فقال الشيخ:

- لا عجب، فهو يعلم أنا نأكل قطعة منه.

وغادرنا بيت الشيخ حول الغسق، وكان زوربا مرحا راغبا في الكلام.. قال:

فيم كنا نتحدث بالأمس يا سيدي.. كنت تقول أنك تريد أن تفتح عيون الناس، حسنا. اذهب إلى العم أناجنوستي وافتح له عينيه. لعلك رأيت كيف وقفت زوجته بين يديه في انتظار أوامره، كما يقف الكلب في انتظار لقمة تلقي بها إليه.. اذهب إليه وقل له إن للمرأة من الحقوق مثل ما للرجل، وإن من القسوة أن يأكل قطعة من الخنزير بينما الخنزير يصرخ أمامه من الألم! قل له ذلك ثم أنبئني ماذا يمكن أن يفيد هو أو زوجته من مثل هذا الإسفاف؟ لن تكون النتيجة إلا تعكير صفاء الأسرة، وإثارة المتاعب، وإغراء الدجاجة بأن تصبح ديكا... كلا يا سيد، دع هؤلاء الناس وشأنهم، ولا تحاول أن تفتح عيونهم، وهب أنهم فتحوا عيونهم فماذا سيرون؟ البؤس، ولا شيء غير البؤس، دع عيونهم مغمضة يا سيدي. ودعهم يحلمون ويأملون.

وصمت لحظة، وحك رأسه (كان يُفكر).. قال:

- اللهم إلا ...

- إلا ماذا؟... تكلم.

- اللهم إلا إذا جعلتهم يفتحون عيونهم على عالم أفضل من هذا الظلام الذي يعيشون فيه، فهل تستطيع ذلك؟

- لا أعلم.. كنت أعرف أنهم إذا فتحوا عيونهم فسوف تدمر أشياء كثيرة، ولكني لم أكن أعرف ماذا يمكن بناؤه فوق الأنقاض، لا أحد يستطيع أن يعرف ذلك على وجه اليقين. إن العالم القديم قائم وواضح المعالم، ونحن نعيش فيه ونناضل معه. أما عالم المستقبل فإنه لم يولد بعد، إنه عالم شفاف غير منظور كالضوء الذي تنسج منه الأحلام.. إنه سحابة تتقاذفها رياح عنيفة، من الحب والبغض والخيالات. إن أعظم الأنبياء لا يستطيع أن يهب الناس أكثر من نظام للحياة، وكلما كان النظام غامضا زادت أهمية النبي وعظم شأنه...

ونظر زوربا إلي وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة ضايقتني، أجبته قائلا:

- في استطاعتي أن أدلهم على عالم أفضل.

- هل تستطيع ذلك حقا؟ وما هو هذا العالم؟

- لا يمكنني أن أوضح.. إنك لن تفهمني.

- معنى ذلك أنك لا تعرف عالما أفضل.. إنني لست من البلاهة كما تتوهم يا سيد... وإذا كان هناك من قال لك إنني رجل ساذج فقد أخطأ.. ربما لا أكون قد تلقيت من التعليم أكثر مما تلقى العم أناجنوستي، ولكني لست جاهلا مثله، فإذا كنت لا أفهمك، وهذا مبلغ ذكائي، فماذا تنتظر ممن هم على شاكلته في العالم أجمع؟ أليس لديك إلا المزيد من الظلام لتظهرهم عليه؟ لقد عرفوا حتى الآن كيف يعيشون، ولديهم أولاد وأحفاد، وابتلاهم الله بالعمى والصمم فقالوا: الحمد لله.. لقد ألفوا الفقر واطمأنوا إليه، فدعهم وشأنهم، ولا تقل لهم شيئا...

فصمت، ومررنا في هذه اللحظة بحديقة الأرملة، فتوقف زوربا قليلاً وتنهد ولكنه لم يقل شيئا، ولا بد أن تكون السماء قد أمطرت، فقد كانت رائحة الأرض تملأ الهواء، وفكرت...

إن هذا الرجل لم يذهب إلى المدرسة، ولكنه مر بكل أنواع التجارب؛ فتفتح عقله، وكبر قلبه، دون أن يفقد ذرة واحدة من جرأته البدائية. وجميع المشكلات التي تبدو لنا معقدة مستعصية على الحل، يجسمها هو كأنما بضربة سيف، ومن العسير أن يخطئ مثل هذا الرجل هدفه، لأن قدميه ثابتتان في الأرض تحت ثقل جسمه، إن بعض القبائل المتخلفة في إفريقيا تعبد الثعبان لأنه يلمس الأرض بكل جسمه، فهو إذن عليم بكل أسرار الأرض، إنه يعرف هذه الأسرار ببطنه وذيله ورأسه. لأنه على اتصال دائم ووثيق بأمنا الأرض، وكل هذا صحيح بالنسبة إلى زوربا.. أما نحن معشر المتعلمين، فإننا مجرد طيور غبية تعيش في الهواء.

الفصل السادس

كان المطر يتساقط في هدوء وسكون عندما أشعل زوربا النار في الموقد قبل أن ينطلق إلى المنجم. وقد قضيت النهار كله قابعا أمام النار، فلم أتناول طعاما ولم أبرح مكاني وانصرفت بكل حواسي إلى الإصغاء إلى أول أمطار الموسم.. كان عقلي في خمول وراحة، ولكن أذني المرهقتين كانتا تسمعان أبسط حركة للأرض وهي تتفتح وللأمطار وهي تسقط وللبذور وهي تنمو وتتضخم.. بل لقد كنت أشعر بالأرض والسماء تتزاوجان كما في أول الخليقة وكما يتزاوج الرجل والمرأة ويُنجبان أطفالا.. وأسمع البحر يزأر على الشاطئ زئير الوحوش ويُخرج لسانه ليطفئ ظمأه.. كُنت سعيداً وأعرف ذلك.. إن الإنسان قلما يحس بالسعادة وهو يمارسها، فإذا ما انتهت سعادته ورجع ببصره إليها، أحس فجأة، وبشيء من الدهشة في بعض الأحيان بروعة السعادة التي كان ينعم بها..

وتوقفت الأمطار قبيل المساء وصفا الجو وشعرت بالجوع وسعدت بهذا الشعور، وأخذت أرتقب عودة زوربا لكي يُشعل النار ويطهو الطعام كما اعتاد أن يفعل كل يوم، وكثيرا ما قال زوربا وهو يضع الوعاء على النار:

- هذا شيء آخر لا غناء للرجل عنه، لا غناء للرجل عن المرأة لعنها الله، ولا عن الطعام.

كان تناول الطعام على هذا الشاطئ المقفر متعة لم يسبق لي إن شعرت بها. وكان زوربا يوقد النار بين حجرين كل مساء ويطهو الطعام، فإذا فرغ من طهوه أكلنا وشربنا وتجاذبنا أطراف الحديث، وقد أدركت أخيرا أن تناول الطعام عمل روحي وأن اللحم والخبز والنبيذ هي الخامات التي تصنع العقل.

وكان زوربا حين يعود من عمله الشاق، وقبل أن يتناول طعامه، وشرابه، يبدو متبلدا زاهدا في الكلام، ولكن ما إن يملأ معدته، حتى تدب الحياة في جسده، حتى تتألق عيناه، وتتجلى ذاكرته، ويرقص كأنما قد نبتت لقدميه أجنحة. كان يقول:

- قل لي ماذا تصنع بالطعام الذي تأكله؟ أقول لك من أنت، إن بعض الناس يحولون الطعام إلى دهن وسماد، وبعضهم يحولونه إلى عمل ومرح، وطائفة أخرى تحوله إلى عبادة، ومعنى ذلك أن الرجال ثلاثة أنواع، وأنا لست من أسوأ الأنواع، ولست كذلك من أفضلها، إن ما آكله يتحول إلى عمل ومرح، فأنا إذن وسط بين النوعين الآخرين.

ثم ينظر إلي في خبث ويضحك ويستطرد قائلاً:

- أما أنت، فإنني أعتقد أنك تبذل قصارى جهدك لتحويل ما تأكله إلى عبادة، ولكنك لا تستطيع، وذلك ما يعذبك ويؤرقك، إن ما يحدث لك قد حدث للغراب قبلك.

- وماذا حدث للغراب يا زوربا؟

- كان يمشي مشية محترمة سليمة كما يمشي سائر الغربان، ولكن خطر له ذات يوم أن يجرب مشية الحمامة ومنذ ذلك اليوم استحال عليه أن يذكر مشيته الأولى، واختلط عليه الأمر، فأصبح يقفز كما ترى..

ورفعت رأسي، فقد سمعت وقع خطى زوربا وهو قادم من المنجم، ولم ألبث أن رأيته مقبلا، وهو مغبر الوجه، وساعداه يتأرجحان إلى جانبيه. قال بصوت لا حياة فيه:

- طاب مساؤك يا سيدي.

- كيف كان العمل اليوم يا زوربا؟

فلم يجب، وقال:

- سأوقد النار وأعد الطعام.

وتناول بعض قطع الخشب من ركن الكوخ وخرج بها، ورتبها بين الحجرين بطريقة خاصة وأشعل فيها النار، ثم وضع الإناء في الموقد، ووضع فيه ماء وبصلا وبعض الطماطم والأرز، أما أنا فقد بسطت الغطاء فوق المائدة. وقطعت بضع شرائح من الخبز، وملأت قدحين بالنبيذ، وجثا زوربا أمام الإناء وراح يحملق في النار ولا يقول شيئا. سألته فجأة:

- هل لك أولاد يا زوربا؟..

- لماذا تسأل؟ لي ابنة.

- متزوجة؟

فضحك.

- لماذا تضحك يا زوربا؟

- يا له من سؤال!! طبعا متزوجة. إنها ليست بلهاء... كنت أعمل في منجم للنحاس بالقرب من (برتفيشتا) حين جاءتني ذات يوم رسالة من أخي (يني).. آه.. نسيت أن أقول لك إن لي أخاً عاقلاً يُقرض الناس بالربا ويتردد على الكنيسة كغيره من المنافقين.. إنه يقال في (سالونيك) ويعد من أعمدة المجتمع هناك.. كتب في رسالته يقول: (أخي العزيز أليكسيس.. إن ابنتك (فروسو) قد ضلت سواء السبيل، ولطخت اسم الأسرة بالأوحال؛ فقد اتخذت لنفسها عشيقا ورزقت منه بطفل، لقد ضاعت سمعتنا، سأذهب إلى القرية لأقطع رقبتها).

- وماذا فعلت يا زوربا؟

فهز كتفيه وأجاب:

- قلت "هكذا النساء" ومزقت الرسالة.

وحرك الأرز في القدر، وأضاف إليه قليلا من الملح، واستطرد قائلا:

ولكن صبراً حتى تسمع الجانب المضحك من القصة.. بعد شهرين أو ثلاثة، تسلمت رسالة أخرى من أخي الأبله، قال فيها، "أتمنى لك الصحة والسعادة يا أخي العزيز، لقد نجا شرف الأسرة. وفي استطاعتك الآن أن ترفع رأسك عاليا، فقد تزوجت (فروسو) من عشيقها".. ونظر زوربا إلي من فوق كتفه، ورأيت على ضوء سيجارته إن عينيه تتألقان..

ثم هز كتفيه وقال باحتقار شديد:

- هكذا الرجال!!

ثم استطرد قائلا بعد صمت قصير:

- ماذا تنتظر من النساء غير أن يحملن من أول عابر سبيل. وماذا تنتظر من الرجال غير أن يقعوا في الفخ!!

ورفع الإناء عن النار. وبدأنا نتناول عشاءنا، ولاحظت أن زوربا مستغرق في التفكير، كان واضحاً أن هناك ما يهمه ويشغله، فقد نظر إليَّ، وفتح فمه ليقول شيئاً، ثم عاد إلى صمته.. ورأيت على ضوء المصباح الزيتي، نظرة القلق التي ترتسم في عينيه، ولم أطق أن أراه على هذه الحال فقلت:

- أنت تريد أن تقول لي شيئاً يا زوربا.. فتكلم.. إن الكلام سيرفه عنك.

ولكنه لزم الصمت، وتناول حصاة صغيرة وقذف بها من النافذة بقوة.

- دع الحصى يا زوربا وتكلم.

فمط رقبته المغضنة، وسألني وهو ينظر في عيني في قلق.

- هل تثق بي؟

- نعم، إنني أثق بك، وأعتقد أنك مهما فعلت فلن تخطئ. حتى لو أردت أنك كالأسد، أو كالذئب، فكلاهما لا يتصرف تصرف الخروف أو الحمار، وكلاهما لا يتنكر لطبيعته.. وأنت زوربا من قمة رأسك إلى أخمص قدميك، ولن تكون إلا زوربا

فأطرق برأسه وقال:

- ولكني لم أعد أدري في أي طريق نحن نسير.

- أنا أدري، فلا تنزعج.. بحسبك أن تمضي قدما.

فصاح:

- قل ذلك مرة أخرى لتشجعني.

- امض قُدماً.

فلمعت عينا زوربا وقال:

- الآن أستطيع أن أنبئك.. لقد كانت تراودني في الأيام الأخيرة فكرة مجنونة..

- إذاً فنفذها.

فاشرأب بعنقه، ونظر إلي بمزيج من الفرح والحزن.

- حدثني بصراحة يا سيدي ألم يكن الغرض من قدومنا هو البحث عن الفحم؟

- كان الفحم مجرد ذريعة يا زوربا لكي نسكت ألسنة الفضوليين من أهل القرية.. لقد أردت أن ينظر إلينا كرجال أعمال فلا يقذفوننا بالطماطم.. هل فهمت؟

فذهل، وحاول جاهدا أن يفهم، ثم ألجمته الدهشة والشعور بالسعادة المفاجئة، فهم علي، وأمسك بكتفي وصاح:

- هل ترقص؟ هل تجيد الرقص؟

- كلا.

- كلا؟

وأحس بخيبة الأمل، وتدلى ساعداه على جنبيه..

قال بعد لحظة:

- حسناً، سأرقص وحدي، أرجو أن تبتعد قليلا كي لا أصطدم بك.

ووثب إلى خارج الكوخ، وخلع حذاءه ورداءه وصداره، وطوى سرواله حتى ركبتيه، وشرع يرقص. كان وجهه لا يزال مُغبراً من تُراب الفحم، ولكن بياض عينيه كان يتألق.. راح يرقص، ويُصفق بيديه، ويثب في الهواء، ويسقط على ركبتيه، ثُم يثب مرة أخرى رافعاً ساقيه في الفضاء، كما لو كان جسده من المطاط.

وفجأة، راح يثب في الهواء وثبات هائلة، كما لو كان يريد التغلب على نواميس الطبيعة ويطير، وخُيل إلي أن في جسده المتهالك روحا قوية تحاول أن تجعل منه شهبا في الفضاء وأن الجسد يهتز بعنف ويهوي على الأرض لأنه لا يستطيع البقاء طويلا في الفضاء.. وارتسمت في وجهه صرامة مزعجة. وكف عن الصياح وأطبق أسنانه وهو يحاول القيام بالمستحيل فصحت به:

- كفى يا زوربا. كفى.

وخشيت أن ينهار جسده، ويتبدد في الهواء بفعل الجهد العنيف الذي يبذله، ولكن كيف تصل إليه صيحاتي وهو يُحلق في الهواء كالطير؟ وراقبته في قلق وهو يرقص هذه الرقصة الهمجية.. كُنت وأنا صبي أطلق العنان لخيالي وأسرد على أصدقائي حكايات غير معقولة، انتهى بي الأمر إلى تصديقها والاقتناع بها. فلقد سألني أحد أصدقائي الصغار ذات يوم:

- كيف مات جدك؟

فتفتق ذهني على الفور، عن أسطورة عجيبة، ما لبثت أنا نفسي أن صدقتها، قُلت له:

- كان جدي رجل مُتقدم بالسن ذا لحية بيضاء، وقد تعود أن ينتعل حذاء من المطاط، وحدث ذات يوم أن وثب من فوق سطح بيتنا. ولكن ما إن مست قدماه الأرض حتى ارتفع مرة أخرى كالكرة، وتجاوز ارتفاعه سطح البيت، ومازال يهبط ويرتفع، ويزداد ارتفاعه كل مرة حتى اختفى بين السحب.. هكذا مات جدي. وكُنت كُلما ذهبت للكنيسة بعد أن اخترعت هذه الأسطورة أشير إلى صورة السيد المسيح وأقول لأصدقائي: "انظروا، هو ذا جدي بحذائه المصنوع من المطاط".

تذكرت هذه القصة وأنا أرى زوربا يثب في الهواء، فخفت أن يختفي في السحب وصرخت مرة أخرى:

- كفى يا زوربا.. كفى.

واستقر أخيراً على الأرض وهو لاهث الأنفاس، ووجهه يتألق بالعرق والسعادة وقد التصقت خصلة من شعره بجبينه، بينما سال العرق على خديه مُختلطا بتراب الفحم، وانحنيت فوقه، فقال بعد لحظة:

- إنني الآن أحسن حالاً وأستطيع الكلام.

وعاد إلى الكوخ، وجلس أمام الموقد وقد أشرق وجهه. سألته:

- ماذا دهاك حتى ترقص كما رقصت؟

- وماذا أستطيع أن أفعل غير ذلك، كاد الفرح أن يخنقني، وكان يجب أن أجد له مُتنفساً.

- عن أي فرح تتكلم؟

فاكفهر وجهه مرة أخرى وبدأت شفتاه ترتجفان.. قال:

أي فرح؟ هل ما قلته لي منذ لحظة كان مجرد دخان في الهواء؟ لعلك تفهم معنى ما قلت. ألم تقل أننا ما جئنا للبحث عن الفحم، وإنما لقضاء الوقت، وتضليل

أهل القرية حتى لا يحسبوننا مجانين ويقذفوننا بالطماطم؟ وأننا نستطيع أن نضحك ونلهو كما نشتهي حين لا يكون هُناك من يرانا؟ أقسم لك إن هذا ما كُنت أنا نفسي أريده دون أن أعرف.. لقد كنت طول الوقت موزعا بين المنجم وبين بوبولينا وبينك، فإذا تناولت الفأس وهويت به على حجارة المنجم قلت لنفسي: إن الفحم هو ما أريد.. فإذا انتهى العمل وخلوت إلى بوبولينا قلت لنفسي: "ليذهب المنجم وصاحب المنجم إلى الشيطان، وأنا معهما".

ولكني لا أكاد أخلو إلى نفسي بعد العمل حتى أفكر فيك فيذوب قلبي وأحس بوخز الضمير وأصيح: "عار عليك يا زوربا أن تخدع هذا الرجل وتأكل أمواله..."

الحق أنني لم أكن أعرف أين أنا أو ماذا أريد.. كان الشيطان يدفعني إلى ناحية، والله يدفعني إلى ناحية أخرى، وأنا أكاد أنشطر بينهما، ولكنك نطقت الآن بالحكمة بارك الله فيك.. لقد أصبحت أرى بوضوح، ونحن متفقان كم بقي معك من المال؟ أعطنيه، ودعنا نأتي عليه...

وراح يجفف عرقه، ويجيل البصر حوله، وكانت بقايا الطعام لا تزال على المائدة الصغيرة فقال:

- معذرة ... لقد جعت وسآكل مرة أخرى.

وتناول كسرة خبز وبصلة وحفنة من الزيتون، وأكل في نهم ورفع قدح النبيذ فوق فمه، وأفرغ الشراب في حلقه دون أن يمس القدح شفتيه ثم غمز بعينه وقال:

- لماذا لا تضحك؟ لماذا تنظر إلي هكذا؟ إن في أعماقي شيطانا يوسوس لي فأطيعه، وكلما غلبني التأثر والانفعال قال لي: ارقص فأرقص، وأصبح أحسن حالا، وعندما مات ولدي الصغير ديمتري، رقصت أمام الجثة فهجموا علي ليمنعونني وصاحوا لقد جن زوربا. ولكن لولا أنني رقصت، لجننت حزنا وأسى، فقد كان أول أولادي وكان في الثالثة من عمره، فعز علي أن أفقده، أتسمعني يا سيدي؟ أم تراني أتحدث إلى نفسي..

- إنني أسمعك يا زوربا.

وحدث مرة أخرى، وكنت وقتئذ في روسيا، نعم.. إنني ذهبت أيضا إلى روسيا لأعمل في مناجم النحاس هناك بالقرب من (نفوروسيسك) وتعلمت من اللغة الروسية خمس أو ست كلمات.. أي القدر الذي يكفيني في عملي، مثل نعم، لا، خبز، ماء، أحبك، تعال، بكم..

وهناك توثقت أواصر الصداقة بيني وبين رجل روسي أصيل، فكنا نذهب في المساء إلى حانة على الشاطئ حيث نشرب عددا كبيرا من زجاجات (الفودكا).. وحدث ذات ليلة أننا شربنا حتى ثملنا، وأحسسنا برغبة في الحديث. وأراد الروسي أن يحدثني عن قصة حياته، وما حدث له خلال الثورة الروسية، وأردت بدوري أن أحدثه عن نفسي وعن قصة حياتي؛ فلقد شربنا معا وثملنا، وقربت الخمر بين قلبينا فأصبحنا كأخوين.

وتم الاتفاق بيننا بالإشارة على أن يبدأ هو الكلام، حتى إذا عجزت عن فهمه صحت به (قف) فينهض واقفاً ويرقص، ويعبر بالرقص عما يريد أن يقوله. فعلت مثله، وعبرنا بأقدامنا وأيدينا وبطوننا، عما عجزنا عن قوله بأفواهنا وكان الروسي هو البادئ بالكلام فحدثني كيف حمل بندقيته وكيف امتدت الحرب، وكيف وصل العدو إلى (نوفوروسيسك)، ولما عجزت عن متابعة حديثه صحت به (قف) فكف عن الكلام ووثب واقفا وراح يرقص كالمجنون. وراقبت يديه وقدميه وصدره وعينيه وفهمت كل شيء..

فهمت كيف دخل الأعداء (نوفوروسيسك) وأعملوا فيها السلب وكيف أنشب النساء أظافرهن في وجوههن ثم في وجوه الرجال، وأخيرا كيف استسلمن وأغمضن عيونهم لذة واستمتاعا.. كما هو شأن النساء جميعاً.

ثُم جاء دوري، ويبدو أن صديقي كان على جانب كبير من الغباء، لأنني ما كدت أنطق ببضع كلمات حتى صاح: (قف)، وذلك ما كنت أنتظره بفروغ صبر، وعلى الفور،

نهضت من مكاني وأبعدت المقاعد والمواقد ورحت أرقص، أواه يا صديقي.. ماذا أصاب الناس وهوى بمستواهم!! لقد أصيبت أجسامهم بالبكم فأصبحوا لا يتحدثون إلا بأفواههم.. ولكن ماذا تستطيع الأفواه أن تقول؟ ليتك رأيت كيف كان الروسي يصغي إلى من رأسي إلى قدمي. وكيف تابع قصتي من بدايتها إلى النهاية!! لقد رقصت له متاعبي ورحلاتي وعدد زيجاتي والأعمال التي مارستها، وكيف عملت تاجرا، وبائعا جائلا، وخزافا وعازفا على السانتوري وحدادا ومُهرباً، وعاملا في المناجم، وكيف سجنت ثم هربت ووصلت إلى روسيا.

وعلى الرغم من بلادته وغبائه فقد فهم كل شيء؛ فقد تكلمت يداي وقدماي بوضوح، كذلك تكلم شعر رأسي وثيابي، والخنجر الذي يتدلى من حزامي. وعندما فرغت من قصتي، أقبل صديقي يعانقني ثم ملأنا كؤوسنا بالفودكا وشربنا وبكينا وضحكنا، وفي المساء تقابلنا مرة أخرى.

- أتضحك يا سيدي؟ ألا تصدقني؟ لعلك تقول لنفسك الآن: ما هذه الخزعبلات التي يرويها هذا السندباد؟ وهل يمكن لإنسان أن يتكلم بالرقص، ولكني أقسم لك أن الآلهة والشياطين هكذا يتكلمون.. أراك تغالب النعاس، إنك إنسان رقيق تفتقر إلى النشاط والحيوية، فاذهب إلى فراشك وغدا نستأنف حديثنا، إن لدي خطة.. خطة رائعة سأحدثك عنها غدا.. أما الآن فإنني سأدخن لفافة تبغ أخرى، وربما ألقيت بنفسي في ماء البحر.. إن جسمي يتلظى ويجب أن أطفئه.. طابت ليلتك.

وقضيت في فراشي وقتا طويلا أعالج النوم ولا أظفر به، ووجدتني على الرغم مني أستعرض ما انقضى من أيامي، وقلت لنفسي: إن حياتي قد ذهبت سدى، فليتني أستطيع أن أمحو بقطعة من القماش كل ما تعلمته وكل ما رأيته وسمعته، وأن أذهب إلى مدرسة زوربا لأتعلم من جديد الحروف الأبجدية الحقيقة، لو أنني فعلت لتغير مجرى حياتي، ولتعلمت الجري والوثب والمصارعة والسباحة وركوب الخيل وإطلاق النار، ولجمعت بين النقيضين الخالدين: متعة الروح ومتعة الجسد. وحانت مني التفاتة، فرأيته

قابعا فوق صخرة على الشاطئ كطائر من طيور الليل، وحسدته، فإنه اكتشف الحقيقة وسلك الطريق المُستقيم.. لو أنه عاش في العصور البدائية لأصبح زعيم إحدى القبائل.. الرجل الذي يتقدم الصفوف ويشق الطريق بفأسه.. أما في هذا العصر الجاحد الذي نعيش فيه، فانه يتضور حول المزارع كالذئب الجائع.. ورأيته ينهض فجأة، ويخلع ثيابه، ويقذف بها على الرمال، ثم يُلقي بنفسه في البحر...

وفي ضوء القمر الشاحب، رأيت رأسه الضخم يظهر ويختفي وسمعته ينبح كالكلب تارة ويصيح كالديك تارة أخرى.. وفي هدوء، ودون أن أشعر، غلبني النعاس، فاستغرقت في نوم عميق، وعندما استيقظت في الصباح، رأيت زوربا واقفا أمامي يبتسم ويهم بأن يجذب قدمي ليوقظني.. قال:

- استيقظ ودعني أعترف لك بخطتي، هل أنت مُصغٍ؟

- نعم.

فجلس القرفصاء على الأرض، وراح يوضح لي كيف أنه سيقيم سلكا هوائيا طويلا ما بين قمة الجبل والشاطئ، وبهذه الطريقة يمكن نقل الأخشاب التي نحتاج إليها في دعم جدران السراديب حتى لا تنهار على العمال. وما زاد عن حاجتنا نستطيع بيعه لأعمال البناء. وكنا قد قررنا استئجار غابة من أشجار الصنوبر يملكها المدير، ولكننا عجزنا عن استغلالها لقلة البغال وفداحة نفقات النقل، ولهذا فكر زوربا في مد سلك هوائي، وإقامة سقالات من الخشب تنهض على أعمدة خشبية وتنحدر من قمة الجبل إلى الشاطئ.

قال بعد أن فرغ من شرح مشروعه:

- هل توافق؟

- أوافق يا زوربا.

فأشعل الموقد وأعد القهوة وألقى غطاء على قدمي حتى لا أُصاب بالبرد، وقال قبل انصرافه:

- سنشق سرداباً جديداً اليوم، فلقد عثرت على عرق فحم جديد.

وتناولت مسودات كتابي عن (بوذا)، وأخذت أشق السراديب بدوري، وقضيت النهار كله في الكتابة، وكلما فرغت من تدبيج صفحة، أحسست بمزيد من الحرية، وشعرت بالجوع فتناولت بعض الزبيب والخبز، وانتظرت أن يعود زوربا فيعود معه كل ما يبهج القلب: الضحكات البريئة، والكلمات الطيبة، والطعام الشهي، وجاء زوربا في المساء وأعد الطعام، وأكلنا، ولكنه كان مشغول البال، وما لبث أن جثا على ركبته، وراح يغرس قطعاً من الخشب في الأرض، ثم شد خيطاً فوقها، وحاول أن يجد الانحدار المُناسب حتى لا ينهار التصميم كله.. قال موضحا:

- إذا كان الانحدار شديداً، ضاع كل شيء.. يجب أن نجد الانحدار المناسب، وهذا يتطلب مُخا ونبيذا.

فقلت ضاحكا:

- لدينا الكثير من النبيذ، أما المخ.

فجلس ليستريح، وأشعل لفافة تبغ وقال:

- الحق أنك ذكي... (ثم استطرد بعد قليل قائلا) إذا نجح هذا المشروع، استطعنا أن ننقل الغابة كلها، وأن نُنشئ مصنعاً لتحويل خشب الأشجار إلى أعمدة وألواح وسقالات وغيرها، وحينئذ تمتلئ جيوبنا بالمال. فنبتاع سفينة ندور بها حول العالم...

وانطلق يتحدث عن النساء في الموانئ البعيدة وعن المدن والأضواء والعمائر الضخمة. قال:

لقد شاب رأسي، وسقطت أسناني، ولم تبق أمامي فسحة من العمر، أما أنت فإنك ما زلت في ريعان شبابك ولن يضرك أن تصبر، ويخطئ من يقول أن الشيخوخة تزيد الإنسان اتزانا. وكيف تتسم تصرفات الإنسان بالاتزان وهو يرى الموت مقبلا عليه؟! أتراه يمد له عنقا ويقول له:

- أرجو أن تقطع عنقي لكي أذهب إلى الجنة!! إنني كلما امتد بي العمر، ازددت تمردا.

وتناول (السانتوري) من مكانه على الجدار وراح يحدثه بقوله:

- تعال أيها الشيطان.. لماذا تتدلى فوق الجدار ولا تقول شيئاً؟ دعنا نسمع غناءك، ولم أكن أضيق قط بإسرافه في الغناء بالآلة الموسيقية وبما يُبدي من رقة ورفق حين يخرجها من غلافها. كما لو كان يُزيل قشور ثمرة ناضجة من ثمار التين، أو غلالة رقيقة عن جسد امرأة فاتنة..

ووضع السانتوري على ركبتيه وانحنى فوقه، ولمس أوتاره في رفق، كما لو كان يسألها عن نوع النغمة التي تريد أن ترسلها، أو كما لو كان يرجوها أن تستيقظ لتؤنس وحشته، وعالج إحدى الأغنيات، ولكن الأوتار لم تُغرد النغم المنشود، فانتقل إلى أغنية أخرى، ولكن الأوتار أخرجت صوتاً أشبه بالحشرجة، كأنها لا تُريد أن تُغني، وجفف زوربا العرق الذي تصبب فجأة على جبينه، وقال وهو ينظر للسانتوري في جزع: إنه لا يُريد أن يغني.

ووضعه في غطائه بعناية، وأعاده إلى مكانه على الجدار، ثم ألقى ببعض حبات الكستناء في النار، وملأ قدحينا بالنبيذ وقال:

- ثمة أشياء لا أفهمها يا سيدي، فهل تستطيع أن تجد لها تفسيرا؟ يخيل إلي في بعض الأحيان أن كل شيء في العالم له روح: الخشب والحجارة، والنبيذ الذي نشربه والأرض التي نسير عليها، أعني كل شيء بلا استثناء.. (ورفع قدحه وقال): نخب صحتك.

وأفرغ النبيذ في جوفه وقال:

- هذه الدنيا بغي عجوز، أشبه ما تكون ببوبولينا.

فلم أتمالك نفسي من الضحك.

- أصغ إلي. ولا تضحك.. نعم، إن الدنيا بغي مثل بوبولينا.. وبوبولينا عجوز، ولكن لها مفاتنها.. إنها تعرف طريقة أو طريقتين لكي تشدك إليها، ولو أنك أطفأت النور واحتويتها بين ساعديك لخيل إليك أنها صبية في العشرين، ولا ضرورة لأن تقول لي أنها تجاوزت مراحل النُضج، إنها استمتعت بالحياة بطريقتها، وعاشرت الأميرالايات والبحارة والجنود والفلاحين والممثلين والقسس والرهبان ورجال البوليس والقضاة والأساتذة والتلاميذ.. ولكن ماذا في ذلك؟ إنها تنسى بسرعة، ولا يمكن أن تذكر أحداً من عشاقها القدامى، وحين تكون معها يحمر وجهها خجلاً وتضطرب كما لو كانت ترى رجلاً لأول مرة في حياتها، إن المرأة لغز غامض، وحتى لو سقطت ألف مرة، فإنها تنهض ألف مرة عذراء، ولعلها تسأل: ولكن كيف يحدث ذلك؟ والجواب هو: "لأنها لا تذكر".

فقلت لأضايقه:

- ولكن الببغاء تتذكر، إنها تردد دائماً اسماً غير اسمك، أفلا يُزعجك كلما حلقت في السماء السابعة أن تسمع الببغاء تصرخ في كانافارو.. كانافارو؟ ألا تشعر وقتئذ برغبة في أن تمسك بها وتدق عنقها؟ لقد آن لك أن تُعلمها أن تصيح "زوربا... زوربا".

فصاح وهو يضع يديه على أذنيه:

- كلام فارغ!! ولماذاً أدق عنقها؟ إنني أحب أن أسمعها تردد هذا الاسم.. إن المرأة تضعها فوق فراشها كل ليلة، وللببغاء الخبيثة عينان تبصران في الظلام، فلا أكاد أشرع في مغازلة المرآة حتى تصيح الببغاء: "كانافارو.. كانافارو.." وأقسم لك أنني

أشعر عندئذ كأن في قدمي حذاء طويل، وكأن على رأسي قبعة مُثلثة الأركان تُزينها ريشة بيضاء، وكأن لها لحية حريرية تنبعث منها رائحة العطر.. ويُخيل إليَّ أن مدافع بارجتي تُرسل آلاف القذائف من حولي

وضحك زوربا من كُل قلبه، وأغمض عينه اليسرى، ونظر إليَّ باليمنى وقال:

- معذرة يا سيدي؛ فإنني على شاكلة جدي أليكسيس رحمه الله، فقد كان بعد أن بلغ المائة من عمره يجلس في المساء أمام باب البيت ليرقب الفتيات وهُن في طريقهن إلى البئر، وكان نظره قد ضعف وأصبح لا يرى بوضوح؛ فإذا مرت به الفتيات دعاهن إليه، وسأل إحداهن من أنت يا بنية؟ فتجيبه بقولها: أنا كسيينو، ابنة مستر أندوني، فيقول لها: أحقا تقولين؟ اقتربي مني إذاً ودعيني ألمسك.. تعالي ولا تخافي.. وتقترب منه الفتاة، فيتحسس وجهها ببطء ولذة، وتنهمر الدموع من عينيه.. وقد سألته ذات مساء: "لماذا تبكي يا جدي؟" فأجاب: "وكيف لا أبكي يا بني وأنا على أبواب القبر، وسأترك ورائي كل هؤلاء الفتيات الفاتنات".

وتنهد زوربا واستطرد قائلا:

- كلما تذكرت حديث جدي تمنيت لو أن جميع النساء الفاتنات يمتن معي في ذات اللحظة، ولكن الفاجرات سيعشن بعدي، وسينعمن بالحياة بين أحضان رجال آخرين، بينما أكون قد تحولت إلى تراب تحت أقدامهن.

الفصل السابع

جلسنا صامتين أمام الموقد حتى ساعة متأخرة من الليل، وأحسست مرة أخرى بأن السعادة لا تكلف إلا القليل: قدح نبيذ وكستناء مشوية، وموقد حقير، وصوت تلاطم الأمواج.. هذه هي العناصر التي يمكن أن تتألق منها السعادة ولا شيء غيرها.. وكل ما ينبغي لكي تشعر بأن هذه هي السعادة، هو أن يكون لك قلب راض ونفس قانعة. سألت زوربا:

- كم مرة تزوجت يا زوربا؟

ولكنه لم يسمع سؤالي، ولعله كان في واد آخر لا يصل إليه صوتي، فمددت يدي إليه ولمسته بأطراف أصابعي وكررت سؤالي:

- كم مرة تزوجت يا زوربا؟

وسمعني هذه المرة وأفاق من ذهوله وأجاب:

- عم تبحث الآن؟ أو تظن أنني لست رجلاً؟ لقد فعلت ما يفعله غيري من الرجال وارتكبت (الحماقة الكبرى).. إنني أسأل المتزوجين المعذرة، ولكني هكذا أسمي الزواج.. نعم، لقد ارتكبت الحماقة الكبرى وتزوجت.

- وكم مرة تزوجت؟

فحك زوربا رأسه بقوة وقال:

- كم مرة؟ إنني تزوجت زواجا شريفا مرة واحدة، وزواجا نصف شريف مرتين، وزواجاً غير شريف ألفين أو ثلاثة آلاف مرة.

- حدثني عن زيجاتك يا زوربا... إن غداً الأحد وسوف نحلق ذقوننا ونرتدي خير ثيابنا ونذهب إلى بوبوليتا لنقضي وقتاً طيبا.. والآن خبرني.

ماذا أقول لك؟ هذه أمور لا تصلح موضوعاً للحديث.. إن الزيجات الشريفة لا طعم لها.. إنها طبق خالٍ من التوابل، والناس في قريتنا يقولون: "إن اللحم الشهي، هو اللحم المسروق" وزوجة الإنسان ليست لحماً مسروقاً.

أما الزيجات غير الشريفة، فكيف يمكن إن يذكرها الإنسان، هل يمسك الديك سجلاً؟ ولماذا ؟ إنني كنت في شبابي أحتفظ بخصلة من شعر كل امرأة أتصل بها، كنت أحمل مقصاً لهذا الغرض، وكنت أذهب للكنيسة والمقص بجيبي، فنحن رجال على كل حال، ومن يدري ماذا يُمكن أن يحدث في أية لحظة.. وهكذا اجتمعت لدي مجموعة كبيرة من خصلات الشعر، منها الأسود والأشقر والأحمر، وبعض خصلات بيضاء. فماذا أصنع بها؟ لقد حشوتها في وسادتي وكنت أنام على الوسادة شتاء، وأهملها صيفاً بسبب الحر، إلى أن انبعثت منها رائحة كريهة فأحرقتها...

وضحك واستطرد قائلاً:

- هذه الوسادة كانت سجل مغامراتي، وقد ضقت بها ذرعا فأحرقتها، ولم أكن أتوقع أن تجتمع لي كل هذه الخصلات، ووجدت أنها تزداد بسرعة مدهشة، فتخلصت من المقص.

- وماذا عن زيجاتك نصف الشريفة يا زوربا؟

فتنهد وأجاب:

- آه.. إن لها سحراً خاصاً، وأولئك النساء السلافيات! أية متعة! وأية حرية! إنهن لا يسألنك: أين كُنت؟ أو لماذا تأخرت؟ أو أين قضيت ليلتك؟ إنهن لا يُلقين عليك أسئلة، وأنت لا تسألهن.. تلك هي الحرية!!

واحتسى قدح نبيذ، وراح يمضغ كستناءة ويتكلم قائلاً:

كانت إحداهما تُدعى صوفنكا، والثانية تدعى نوسا.. وقد قابلت صوفنكا في قرية صغيرة بالقرب من (نوفوروسيسك).

كان الوقت شتاءً، والثلوج تغطي الأرض، وكنت في طريقي إلى المنجم الذي أعمل فيه، فتوقفت في القرية، لأن اليوم كان يوم السوق، والرجال والنساء يتوافدون من القرى للبيع والشراء، وكان هناك قحط، والناس يبيعون كل ما يملكون ليبتاعوا خبزا..

وفيما أنا أطوف بالسوق إذ وقع بصري على فلاحة شابة تثب من عربتها كان طولها ستة أقدام، ولها عينان زرقاوان كالبحر، وفخذان مليئتان كفخذي الفرس الولود، وما أن رأيتها حتى جمدت في مكاني وقلت لنفسي "مسكين أنت يا زوربا.. كيف سيغمض لك جفن بعد أن رأيت فاتنة الفاتنات"، وسرت في أثرها، دون أن أقوى على تحويل بصري عنها، وقلت لنفسي: لماذا تذهب إلى المنجم أيها الأحمق المسكين! هذا هو المنجم الذي يجب أن تعمل في سراديبه. وتوقفت الفتاة، وبدأت تساوم، وابتاعت كومة من الخشب حملتها إلى عربتها، وعندئذ رأيت ذراعيها، وأي ذراعين، ثُم ابتاعت بعض الخبز وخمس سمكات أو ست وسألت: بكم هذا؟ وذكر لها البائع الثمن، ولم يكن معها نقود فمدت يدها إلى قرطها الذهبي لتقدمه ثمناً للخُبز والسمكات.. ووثب قلبي بين ضلوعي.. هل أدع امرأة تتخلى عن قرطها.. عن حليها.. عن عطرها؟ إذا فعلت المرأة ذلك فقل على الدنيا السلام! ومن يدعها تفعل ذلك يكون كمن يجرد الطاووس من ريشه، هل يطاوعك قلبك على نتف ريش الطاووس؟ قُلت لنفسي:

- كلا.. ذلك لن يحدث أبداً طالما زوربا على قيد الحياة!!

وفتحت كيس نقودي، ودفعت، ولم يكن للنقد الروسي في ذلك الوقت أية قيمة، وكان في استطاعتك أن تشتري الفرس بمائة درخمة يونانية والمرأة بعشرة

درخمات، دفعت ثمن الخبز والسمك. فتحولت الفتاة، وصعدتني بنظرة من ركن عينها. وتناولت يدي لتُقبلها ولكن جذبت يدي، فهتفت بالروسية:

- سباسيبا ... سباسيبا ... (أي شكراً ... شكراً).

ووثبت إلى العربة، وتناولت عنان الجواد ورفعت سوطها فقلت لنفسي:

- حذار يا زوربا... إنها ستفلت من بين أصابعك.

وبوثبة واحدة، كُنت بجانبها في العربة، فلم تقل شيئاً، بل ولم تنظر حولها، وهوت بسوطها على ظهر الجواد، وانطلقت بنا العربة، وفي الطريق أدركت أنني أريدها، وكنت أعرف من اللغة الروسية ثلاث كلمات، ولكن هذه الأمور لا تحتاج إلى كلام كثير؛ فقد تفاهمنا بالعيون، والأيدي والسيقان، ووصلنا إلى القرية وتوقفنا أمام دارها، ففتحت الفتاة الباب بدفعة من كتفها ودخلت، وعاونتها في نقل الخشب إلى فناء الدار، وحملنا الخبز والسمك لغرفتها، وكانت بالغرفة امرأة عجوز تجلس أمام الموقد الخامد وترتجف من البرد، وكان البرد من القسوة بحيث أحسست أن أظافري ستسقط، ونظرت إلى العجوز وابتسمت، وقالت لها الفتاة كلاما لم أفهمه..

أما أنا فقد أشعلت النار، بينما كانت الفتاة تعد المائدة، وأحضرت الفتاة بعض الفودكا وشربنا، وأعدت الشاي، وجلسنا نتناول الطعام، وأعطينا العجوز نصيبها منه... وأخيراً نهضت الفتاة إلى الفراش فأبدلت أغطيته، ثم أشعلت مصباحاً زيتياً أمام تمثال السيدة العذراء، ورسمت علامة الصليب على صدرها ثلاث مرات، وأومأت إلي، فجثونا أمام العجوز، التي وضعت يديها على رأسينا وغمغمت ببضع كلمات، ولعلها كانت تُباركنا فهتفت بالروسية:

- سباسيبا... سباسيبا.

وأحاطت الفتاة بساعدي، وحملتها إلى الفراش..

هُنا صمت زوربا، وأرسل بصره بعيداً، إلى البحر، وقال بعد قليل:

- كان اسمها صوفنكا.

ولاذ بالصمت، فسألته:

- وماذا حدث بعد ذلك؟.

- ماذا تعني يا أستاذي؟ وهل ما حدث بعد ذلك يُمكن الخوض فيه؟ إن المرأة ينبوع متجدد، تنحني فوقه فترى ظلك في مائه، وتشرب حتى تبلى عظامك، ومن ثم يأتي رجل آخر ظمآن فينحني ويرى ظله، ويشرب، ثم يأتي ثالث.

- هل هجرتها بعد ذلك..

- ماذا تتوقع؟ قلت لك أنها ينبوع متجدد، وما أنا إلا عابر سبيل. لقد مكثت معها ثلاثة شهور، ثُم تذكرت المنجم فقلت لها ذات يوم: "إن لدي عملاً لا بد من إنجازه.. ويجب أن أذهب".

- اذهب إذاً، وسأنتظرك شهراً، فإذا لم تعد، أصبح حرة، وكذلك أنت، فاذهب على بركة الله.

- وهل عدت بعد شهر؟

- معذرة إذا قلت لك أنك غبي، كيف كان يمُكن أن أعود؟ هل تدعك النساء وشأنك؟ لم تمض عشرة أيام على رحيلي حتى قابلت (نوسا).

- حدثني عنها إذاً.

- سأحدثك عنها في مناسبة أخرى.. يجب ألا نُخلط بينهما.. والآن، دعنا نشرب نخب صوفنكا.

وجرع قدح النبيذ ثم استند إلى الجدار وقال:

- حسنا، سأحدثك عنها.

ومسح شاربه، وبدأ قصته عن نوسا، قال:

- إنني قابلتها أيضاً في إحدى القرى الروسية، كان الوقت صيفاً، والحقول مليئة بالبطيخ، وفي استطاعتك أن تأخذ منه ما تشاء دون أن يتعرض لك أحد.

إن كل شيء موجود بوفرة في روسيا، كل شيء في أكوام، البطيخ والسمك والزبد والنساء، وبحسبك أن تمد يدك وتأخذ ما تريد، على خلاف الحال هنا في اليونان فإنك إذا لمست بطيخة، أخذوك إلى الشرطة ثم إلى المحكمة وإذا لمست امرأة هجم عليك أخوها وبيده سكين، قبح الله هذا البلد اذهب إلى روسيا يا سيدي وستجد أنك تستطيع أن تعيش هناك كالأمراء.

وقد حدث أنني مررت بمدينة (كوبان) فرأيت امرأة في مطبخ أحد البيوت وأعجبتني، والمرأة السلافية، ليست كالمرأة اليونانية النحيلة الجشعة التي تعطيك الحب قطرة فقطرة. وتأخذ منك أكثر مما تعطيك، وتحاول جاهدة أن تخدعك وتسرقك.. إن المرأة السلافية توفي الكيل والميزان وتعطيك أكثر من حقك في النوم والحب والطعام.. إنها كحيوان الحقل، وكالأرض نفسها تعطي عن طيب خاطر، وتعطي بسخاء.. سألتها: "ما اسمك؟" فأجابت: "نوسا... وأنت؟"؛ فقلت: "أليكسيس".. ثُم قلت لها على الفور:

- إنني معجب بك يا نوسا.

فنظرت إليَّ بإمعان، كما ينظر الإنسان إلى الحصان قبل أن يشتريه وقالت:

- وأنت لا بأس بك؛ فأسنانك سليمة، ولك شارب كبير، وكتفان عريضتان، وساعدان قويان، إنك تعجبني..

ولم نقل أكثر من ذلك؛ فقد تفاهمنا في غمضة عين وطلبت إليَّ أن أزورها في المساء.. سألتني:

- هل لديك معطف من الفراء؟

- نعم... ولكن في هذا الحر..

- لا بأس.. يحسن بك أن ترتديه، لكي تبدو أنيقاً.

وفي المساء، ارتديت أفضل ثيابي، وحملت عصاي ذات المقبض الفضي، وانطلقت في طريقي إلى بيت نوسا، وكان بيتاً ريفياً كبيراً به حظائر للأبقار وقاعات للتقطير ورأيت في فنائه قدرين كبيرين فوق موقدين فسألت ما هذا؟ فقالوا إنه عصير البطيخ وإنهم يصنعون منه خمراً. فقلت لنفسي: "أرأيت يا زوربا.. إنهم يصنعون خمراً من عصير البطيخ! حقا إن هذه هي الأرض الموعودة، فوداعاً أيها الفقر، انك وقعت واقفاً هذه المرة كما يقع الفأر على قرص من الجبن".. وارتقيت سلماً خشبياً كبيراً، وفي الطابق الأول، التقيت بوالدي نوسا، وكانت ثيابهما تدل على الثراء وسعة العيش فاستقبلوني بالأحضان والقبلات، وقالا لي كلاماً كثيراً لم أفهم منه حرفاً واحداً، ولكن ما أهمية ذلك، طالما أنه كان واضحاً من ملامحهما أنهما لا يضمران لي شراً. ودخلت قاعة فسيحة فماذا رأيت؟ موائد تئن تحت ثقل الطعام والشراب، موائد كأنها السفن الشراعية.

وكان الجميع وقوفاً، الأقارب والأصدقاء، نساءً ورجالاً، تتصدرهم (نوسا) في ثوب سهرة يكشف عن صدر بارز كأنه مُقدم السفينة، وتضع على رأسها منديلاً أحمر، وقد طُرز فوق قلبها شعار المنجلة والمطرقة.. كانت تتألق شباباً وجمالاً، فقلت لنفسي:

"زوربا، أيها الخاطئ الكبير، هل هذا هو الجسد الذي ستضمه إلى صدرك الليلة! عفا الله عن أبويك اللذين جاءا بك إلى هذه الدنيا...!!"

وانقضضنا جميعاً على الطعام، وأكلنا كالخنازير وشربنا كالسمك وكان والد نوسا يجلس إلى جواري ويتكلم دون أن يُحول عينيه عن عيني، وكأنه يوجه الحديث إلي، أما ماذا قال، فهذا ما يعلمه الله... كُل ما أعلمه أنني تعبت من الوقوف، بخاصة وقد كنت ثملاً، فجلست. وألصقت ركبتي بركبة نوسا، وكانت تجلس إلى

يميني، وخُيل إليَّ أن أباها لن يكف عن الكلام، إلى أن تصبب العرق على جبينه فهجم عليه المدعوون ليُسكتوه، ونجحوا أخيراً في إسكاته، وحينئذ أومأت إليَّ وقالت:

- الآن جاء دورك.. يجب أن تتكلم.

فنهضت واقفا، وألقيت خطاباً نصفه بالروسية، ونصفه باليونانية، ولا أدري ماذا قلت، ولكني أذكر فقط أنني ختمت خطابي بإحدى الأغنيات اليونانية الشائعة وما أن فرغت منها حتى ألقيت بنفسي بين ساعدي نوسا وقبلتها.

وصمت زوربا لحظة وتنهد واستطرد:

- وقضينا معاً ستة شهور، وكل ما أرجوه ألا يمحو الله ذكرى هذه الشهور الستة من مُخيلتي..

وأغمض عينيه، وظهر عليه التأثر، وكانت هذه أول مرة أراه فيها وقد هزته إحدى الذكريات البعيدة؛ فسألته بعد لحظة:

- هل أحببتها إلى هذا الحد؟.

ففتح عينيه وقال:

- إنك مازلت شاباً، ولن تفهم، وعندما يشتعل رأسك شيبا مثلي، حينئذ نستطيع إن نتحدث في هذا الموضوع الخالد.

- أي موضوع خالد؟

- موضوع النساء طبعا، كم مرة يجب أن أقول لك أن المرأة لغز خالد.

- وماذا كان من أمر نوسا؟

فأجاب وهو يرسل بصره إلى البحر:

- عدت إلى البيت ذات مساء فلم أجدها، وبحثت عنها في كل مكان دون جدوى. ثم علمت أن جنديا وسيما قدم أخيرا إلى القرية وأنها هربت معه... وخيل إلي أن الدنيا قد انتهت وأن قلبي قد انسحق، ولكن هذا القلب الشقي ما لبث أن التأم، ولعلك رأيت أشرعة السفن وما فيها من رقع حمراء وصفراء وسوداء لا تمزقها العواصف والأعاصير، إن قلبي كهذه الأشرعة، مليء بالثقوب والرقع، وليس هناك ما يخشى عليه منه.

- ألم تنقم على نوسا يا زوربا؟

- ولماذا؟ إن المرأة مخلوق غير مفهوم، وقد أساءت إليها الشرائع الدينية والدنيوية، ولو كان الأمر بيدي، لما أخضعت الرجال والنساء لنفس القوانين، إن الرجل يستطيع مواجهة ما يُفرض عليه من قيود، أما المرأة فمخلوق ضعيف لا حول له ولا قوة.. دعنا نشرب نخب نوسا، ونخب المرأة، ولنسأل الله أن يهبنا نحن الرجال مزيداً من العقل.

الفصل الثامن

أمطرت السماء مرة أخرى في اليوم التالي، وكنت جالسا بباب الكوخ، أرى السماء تظلم، والبحر يتألق بلون فسفوري أخضر، وكان الشاطئ مقفرا تماما، ولا أثر لشراع أو لطير: فنهضت واقفا، ومددت يدي إلى المطر، كما يمد السائل يده مستجديا، وشعرت فجأة برغبة في البكاء.. كان ينبعث من الأرض الرطبة نوع من الحزن، أشد عمقا وغموضا من أحزان نفسي، وأردت أن أصرخ، فقد أحسست بأن ذلك سيرفه عني، ولكني خجلت، وكانت السحب تتكاثف وتدنو من الأرض، فنظرت من النافذة، وشعرت بقلبي ينبض في رفق.

ما أمتع الحزن الذي يملأ النفس من مرأى المطر الهادئ المتصل! إن جميع الذكريات المريرة الراسبة في أعماق النفس تطفو حينئذ فوق السطح، ذكرى الأصدقاء الذين هبوا، والابتسامات الحلوة التي ذبلت، والآمال العزيزة التي فقدت أجنحتها.. وتراءت لي وسط خيوط المطر، صورة صديقي الذي رحل إلى القوقاز، فتناولت قلما وورقة وشرعت أتحدث إلى صديقي لكي أفرق ستار المطر وأتمكن من التنفس:

صديقي العزيز..

إنني أكتب إليك من شاطئ مقفر في كريت، حيث اتفقت مع القدر على قضاء بضعة شهور ألعب خلالها دور الرأسمالي، فإذا نجحت لعبتي قلت أنها لم تكن لعبة، وإنما هي قرار خطير غير مجرى حياتي. ولا شك أنك تذكر كيف وصفتني يوم رحلت بأنني (عث كتب)، لقد بلغ من شبقي بهذا الوصف أنني قررت تحطيم قلمي وهجر الكتابة بعض الوقت – وربما إلى الأبد – لأمارس حياة أكثر

واستخدمت بعض العمال، وأعددت الفئوس والمعاول والمصابيح والسلال وعربات النقل، وحفرت السراديب وسرت فيها، كل ذلك لكي أضايقك وأغيظك.

إن سعادتي هنا لا حد لها، لأنها تنبع من العناصر الخالدة، الهواء النقي والشمس والبحر ورغيف الخبز، وفي المساء، يجلس القرفصاء أمامي سندباد عجيب غريب الأطوار ويتحدث إلي، فأشعر كأن الدنيا تزداد اتساعا. وفي بعض الأحيان عندما لا تسعفه الألفاظ، يثب من مكانه ويرقص، وحين تعجز رقصاته عن التعبير، يضع السانتوري على ركبتيه ويعزف، وكثيرا ما يعزف مقطوعات همجية تحس حين تسمعها بأنك تختنق، لأنها تشعرك بأنك تعيش حياة لا لون لها ولا طعم، حياة بائسة لا تخلق بإنسان، وإذا عزف مقطوعة حزينة، أحسست بأن حياتك تمضي وتنساب كما تنساب الرمل بين أصابعك.

إن قلبي يتحرك بين ضلوعي جيئة وذهابا كالنول، إنه ينسج هذه الشهور التي أقضيها في كريت، وأعتقد – غفر الله لي – أنني سعيد.

هل تذكر يوم عبرنا إيطاليا في طريقنا إلى اليونان للدفاع عن إقليم (بونتاس) الذي كان وقتئذ مُعرضا لخطر الغزو؟ لقد غادرنا القطار لقضاء بعض الوقت في المدينة حتى يحين موعد سفرنا بالقطار التالي، وسرنا في حديقة واسعة على مقربة من المحطة.. وكانت أحواض الزهور حولنا من الجمال وحسن التنسيق بحيث خيل إلينا أننا في حلم، وما كدنا ننحرف في واحد من مسالك الحديقة حتى وجدنا أنفسنا أمام فتاتين تسيران جنبا إلى جنب وتقرآن كتابا واحدا. إنني لا أذكر الآن مبلغ حظهما من الجمال ولكني أذكر أن إحداهما كانت شقراء والأخرى سمراء، وأنهما كانتا ترتديان ثياب الربيع. وبمثل الجرأة التي نترف بها في الأحلام، اقتربنا منهما، وقلت أنت تحدثهما:

- مهما يكن موضوع الكتاب الذي تقرآنه، فإننا على استعداد لمناقشته معكما.

وكان الكتاب من تأليف (جوركي) ولم يكن لدينا متسع من الوقت، فدار الحديث بيننا بسرعة عن الحياة والفقر، وثورة العقل والحب.. ولن أنسى ما أحسسنا به وقتئذ من سرور وأسى؛ فقد خيل إلينا أننا والفتاتين المجهولتين أصدقاء قدامى، بل وعشاق قدامى.. وأقبل القطار، فأخرجنا من حلمنا الممتع وشددنا على أيدي الفتاتين، فامتقع وجه إحداهما، بينما راحت الأخرى تضحك وترتجف. وأذكر أنني قلت لك في تلك اللحظة: "ما معنى اليونان؟.. وما معنى الوطن؟ وما معنى الواجب؟.. إن الحقيقة هنا"؛ فكان جوابك: "إن اليونان والوطن والواجب لا تعني شيئاً.. إنها لا شيء، ولكن هذا اللاشيء إذا دعانا لبينا دعوته بلا تردد، وبذلنا حياتنا في سبيله عن طيب خاطر".

ولعلك تسأل: "لماذا أكتب إليك كل هذا؟".. إنني أريدك أن تعلم أنني لم أنس لحظة واحدة من اللحظات التي عشناها معاً..

وما أن فرغت من الرسالة التي تحدثت فيها إلى صديقي حتى سرى عني وشعرت بالارتياح، ودعوت زوربا، كان جالساً تحت إحدى الصخور حتى لا يبتل بماء المطر، وبين يديه نموذج صغير للسلك الهوائي يقوم باختباره.. قُلت له:

- هلم بنا نذهب إلى القرية.

- إن المطر ينهمر.. ألا تستطيع الذهاب وحدك؟

- لا أريد أن أشعر بالملل، هلم بنا..

فضحك وقال:

- يسرني أن تكون بحاجة إليَّ.

وارتدى معطفاً من الصوف كُنت قد أعطيته له، وخرجنا إلى الطريق، وكان الهواء ساكناً، والضباب يحجب الجبل، وانحنى زوربا والتقط زهرة نرجس، ونظر

إليها طويلاً، وكأنه يرى النرجس للمرة الأولى في حياته، وقال وهو يتأملها بعد أن شمها:

- ليتنا نعلم ماذا تقول الصخور والأمطار والزهور؟! لعلها تدعونا ونحن لا نسمعها.

- تُرى متى يفتح الناس عيونهم وآذانهم ليروا ويسمعوا؟ ومتى نفتح سواعدنا لنحتضن كل شيء: الصخور والأمطار والزهور والناس؟ ما قولك في ذلك يا أستاذ؟ وماذا تقول كتبك في هذا الموضوع؟

- لتذهب الصخور والأمطار والزهور إلى الشيطان.. هذا ما تقوله الكتب.

فأمسك بساعدي وقال:

- خطرت لي فكرة أرجو ألا تغضبك.. ضع كل كتبك في كومة واحدة وأشعل النار فيها، فلعلنا نستطيع أن نصنع منك شيئا بعد ذلك.

وقلت لنفسي:

- إنه على حق، ولكني لا أستطيع أن أفعل ذلك..

ووصلنا إلى القرية، ورأينا الفتيات يعدن بالخراف من المراعي، والرجال يطلقون الثيران من نير المحاريث ويتركون الحقول بغير حرث، والنساء تعدون وراء أطفالهن في الشوارع الضيقة.

كان يسود القرية منذ بدأت الأمطار نوع من الذعر المرح، فالنساء يصرخن وعيونهن تضحك، والرجال يصطنعون الجد والرزانة، وقطرات المطر تتساقط من لحاهم وشواربهم، ورائحة البلل تفوح من الأرض والحجارة والعشب.

ودخلنا مقهى (التواضع) والماء يقطر من ثيابنا، وكان المقهى مزدحما بالرجال، وبعضهم يلعبون الورق وبعضهم يتحدثون بأعلى أصواتهم كما لو كانوا

يتصايحون عبر الجبال، بينما دار شيوخ القرية حول مائدة في ركن قصي من أركان المقهى وراحوا يتداولون: العم أناجنوستي بقميصه الأبيض ذي الأكمام الفضفاضة، ومفراندوني وهو يدخن غليونه الطويل وعيناه تنظران إلى موقع قدميه، وناظر المدرسة وقد استند إلى عصاه وأخذ ينصت إلى شاب ضخم الجسم عاد لتوه من (كانديا) وراح يصف عجائب هذه المدينة الكبيرة. وصاحب المقهى وهو يصغي من مكانه ويضحك ويرقب أواني القهوة المرصوصة أمامه.

وما أن رآنا العم أناجنوستي حتى نهض واقفا ودعانا للجلوس إلى مائدته وقال وهو يشير إلى الشباب:

- إن سكافيانونيكولي يحدثنا عن مشاهداته في (كانديا)، وحديثه لا يخلو من الطرافة.

ثم التفت إلى صاحب المقهى وقال:

- قدحان من العرق يا مانولاكي.

وجلسنا، وما أن وجد الشاب نفسه في حضرة أجنبيين حتى انطوى على نفسه ولزم الصمت، فقال له ناظر المدرسة ليحثه على الكلام:

- وهل ذهبت إلى المسرح كذلك يا نيكولي؟

فمد الشاب يده الغليظة وتناول قدحه، واحتسى النبيذ وجمع أطراف شجاعته وقال:

- نعم، لقد ذهبت إلى المسرح.. كانوا يتكلمون في كل مكان عن ممثلة معروفة، وفي إحدى الأمسيات، رسمت علامة الصليب على صدري وقلت لنفسي، حسنا، لماذا لا أرى بنفسي تلك التي تثير كل هذه الضجة.

فقال العم أناجنوستي:

- وماذا رأيت يا فتى!! حدثنا بحق السماء.

الحق إنني لم أر شيئا يستحق الذكر، إنك تسمعهم يتحدثون عن المسرح فتظن أنك ستشهد شيئا، ثم تدرك بعد قليل أنك أضعت نقودك سدى، فالمكان عبارة عن حانة كبيرة مستديرة كالجرن، مليئة بالمقاعد والأنوار والناس، ولم أدر في الواقع أين أنا، وبهرتني الأضواء فلم أتبين شيئا، وخشيت أن يسحروني فهممت بالخروج فأمسكت بيدي فهتفت بها: "إلى أين تذهبين بي؟؟"، ولكنها جذبتني خلفها، ومرت بي بين الصفوف وأجلستني في أحد المقاعد، ولم أر إلا أناساً حولي وأمامي وخلفي وفي كل مكان حتى السقف. وشعرت بالاختناق، إذ لم يكن هناك هواء على الإطلاق..

وأخيراً التفت إلى جاري وسألته:

- هل لك أن تدلني أيها الصديق من أين تخرج المُمثلات؟

- إنهن يخرجن من هناك.

وأشار إلى الستار، وكان على حق، إذ لم تمض لحظة حتى دق جرس، وتحركت الستار، وظهرت الممثلة التي عنها يتحدثون، ظهرت أمامنا على المسرح بدمها ولحمها، وأخذت تروح وتغدو وتحرك ذيلها، وتدور حول نفسها، حتى صفق الناس فتوارت عن الأبصار.

وهنا أغرق القرويون في الضحك، فبدا الخجل على وجه نيكولي ونظر إلى الباب وقال ليغير مجرى الحديث:

- لا تزال الأمطار تهطل.

فاتجهت الأبصار إلى حيث كان ينظر، وفي هذه اللحظة مرت بالمقهى امرأة تعدو، وقد رفعت ذيل ثوبها الأسود إلى ما فوق ركبتها، وانسدل شعرها على كتفيها، كانت رشيقة القوام، وقد التصق ثوبها بجسدها؛ فأبرز مفاتنه

وأذهلني جمال تكوينها، وقلت لنفسي: "يا لها من وحش مفترس!!" وخيل إلي أنها امرأة خطرة من الطراز الذي يلتهم الرجال.

وحولت المرأة رأسها بفترة يسيرة، وألقت على داخل المقهى نظرة ساحرة خاطفة، وهتف شاب كان يجلس بجوار النافذة قائلا:

- يا إله السماوات.

وصاح مانولاكاس، شرطي القرية:

- قبحها الله من فاجرة تُشعل النار في قلوب الرجال وتدعهم يحترقون.

وراح الشاب الجالس بجوار النافذة يترنم بإحدى الأغنيات في تردد وبصوت خافت أولاً، ثُم أخذ صوته في الارتفاع:

- وسادة الأرملة لها رائحة السفرجل.

أنا أيضاً عرفت هذه الرائحة، ومن وقتها لم يغمض لي جفن، فصاح مافراندوني: "صه". فصمت الشاب على الفور.

وهمس أحد الشيوخ في أذن مانولاكاس قائلا:

- إن عمك حانق على الأرملة، وإذا وقعت المسكينة بين يديه فسوف يمزقها أرباً.

فقال مانولاكاس:

- وأنت أيها العجوز أندروليو، أعتقد أنك أيضا مفتون بها.. ألا تخجل من نفسك؟

- أصغ إليَّ.. لا تشك أنك لم تدقق النظر في أطفال القرية الذين ولدوا أخيرا، بارك الله في الأرملة.. في استطاعتك أن تقول أنها عشيقة رجال القرية جميعا.

وبعد لحظة صمت، غمغم أندروليو العجوز قائلا:

- ما أسعد الرجل الذي يحتويها بين ساعديه، ليتني كنت في العشرين من عمري، مثل بافيل، ابن مافراندوني.

فقال أحد الحاضرين ضاحكا:

- ستراها الآن حين تعود إلى بيتها.

فتعلقت عيون الجميع بالباب. وكان المطر قد كف، وبدأ وميض البرق يشق صفحة السماء بين الفينة والفينة، وتقطعت أنفاس زوربا وفقد سيطرته على نفسه منذ أبصر الأرملة فقال يُحدثني:

- لقد كف المطر فهلم بنا.

وظهر بالباب صبي عاري القدمين أشعث الشعر زائغ البصر فصاح به البعض ضاحكين:

- أهذا أنت يا ميميكو؟

إن لكل قرية إنسانها المجنون، فإذا لم يوجد المجنون خلقوه خلقاً ليسخروا منه، وقد كان ميميكو مجنون تلك القرية، وقال ميميكو بصوت رقيق كأصوات النساء:

- أيها الأصدقاء، لقد فقدت الأرملة سورمالينا نعجتها، وستعطي جالوناً من النبيذ جائزة لمن يجدها.

فصاح مافراندوني في غضب:

- اخرج من هنا... اخرج.

فذعر ميميكو وانكمش بجانب الباب، فقال له العم أناجنوستي مشفقا:

- اجلس يا ميميكو وتناول قدحا من العرق حتى لا تصاب بالبرد، ماذا تصبح قريتنا إذا لم يبق فيها مغفل؟

وأقبل على المقهى شاب لاهث الأنفاس، تتساقط قطرات المطر من شعر رأسه فصاح به مانولاكاس:

- تعال يا بافلي واجلس معنا.

فنظر مافراندوني إلى ولده وقطب حاجبيه وتمتم قائلا:

- أهذا ولدي! من أين هذه الخنوثة، بودي أن أمسك بخناقه وأصفع به الأرض.

كان زوربا يجلس مُتململاً، فقد ألهبت الأرملة حواسه، وشق عليه البقاء بين الجدران الأربعة، وكان يهمس بأذني كل دقيقة:

- هلم بنا.. إنني أختنق هنا.

تحول لصاحب المقهى وسأله، مُتظاهراً بقلة الاكتراث:

- من تكون هذه الأرملة؟

فقال المدعو كوندومانوليو:

- إنها فرس ولود.

ووضع إصبعه على شفتيه، ونظر إلى مافراندوني من ركن عينيه نظرة ذات معنى، واستطرد قائلاً:

- نعم.. إنها فرس ولود، ولكن دعنا لا نتحدث عنها حتى لا تحل علينا اللعنة.

ونهض مافراندوني واقفاً وقال:

- معذرة.. إنني سأعود إلى بيتي.. اتبعني يا بافلي

وخرج وتبعه ابنه، وما لبثا أن غابا عن الأبصار.

وانتقل كوندومانوليو إلى مقعد مافراندوني وقال بصوت خافت لا يكاد يسمع:

- مسكين مافراندوني. إنه سيموت كمدا. لقد نزلت بأسرته كارثة كبرى، وأمس فقط، سمعت بافلي يقول لأبيه: سأقتل نفسي إذا لم تقبلني زوجاً لها، بينما الفاجرة تسخر منه، ولا تريد أن تكون لها أية صلة.

وهمس زوربا وقد أثارته كل كلمة قيلت عن الأرملة:

- دعنا نذهب.

فقلت وأنا أنهض واقفا:

- هلم بنا إذن.

وخرج ميميكو من الركن الذي توارى فيه، وسار في أعقابنا. وبعد لحظة أحسست به يلمس كتفي وسمعته يقول:

- أعطني سيجارة أيها السيد.

فأعطيته سيجارة فأشعلها وراح يُدخنها بلذة؛ فسألته:

- إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى حديقة الأرملة.. لقد وعدتني بطعام إذا أنا أذعت الخبر عن نعجتها.

وأسرعنا الخطى، وبدت القرية نظيفة باسمة بعد أن غسلها المطر، وتنهد زوربا وسأل الصبي:

- هل تحب الأرملة؟

- ولماذا لا أحبها أيها الصديق؟ ألم أخرج من المجاري ككل إنسان آخر.

فذهلت، وسألته:

- من المجاري؟ ماذا تعني يا ميميكو؟

- ألم أخرج من أحشاء أمي؟

ودهشت وفكرت: "إن شكسبير هو وحده الذي يستطيع في أفضل لحظاته الخلاقة أن يصف سر الولادة بمثل هذا التعبير الواقعي".

سألته:

- كيف تقضي أيامك يا ميميكو؟

- كأي أمير من الأمراء، أستيقظ صباحا، وآكل كسرة من الخبز، وأؤدي جميع الأعمال التي يطلبها الناس مني، وأجمع القمامة والروث، ثم أصطاد السمك. إنني أعيش مع عمتي، ندابة القرية، وسوف تعرفها يوما ما. الجميع يعرفونها. وفي المساء أعود إلى البيت وأتناول بعض الحساء، وقطرة من النبيذ إن وجد، فإذا لم أجد شربت ماء حتى تمتلئ أمعائي.

- ألا تنوي الزواج يا ميميكو؟

- أنا؟ إنني لست مجنونا لكي أبحث عن المتاعب.. المرأة تحتاج إلى أحذية؛ فأين أجدها؟ إنني أسير عاري القدمين كما ترى.

- أليس لديك حذاء؟

- من تظنني؟ عندي حذاء طبعا، فقد مات رجل في العام الماضي فنزعت عمتي حذاءه من قدميه، ولكني لا أنتعلهما إلا بعيد الفصح، أو عندما

أذهب إلى الكنيسة، ومتى غادرت الكنيسة خلعتهما، ووضعتهما على كتفي، وعدت بهما إلى البيت.

- وأي شيء تحبه أكثر من سواه يا ميميكو؟

- الخبز أولاً، وبخاصة إذا كان ساخنا ومن القمح، ثُم النبيذ ثم النوم.

- والمساء؟

- لا يهمني غير الطعام والشراب والنوم.. أما ما عدا ذلك فمتاعب.

- والأرملة؟

- إذا أردت السلامة فابتعد عنها، وتنكب طريقها.

قال ذلك ورسم علامة الصليب على صدره.

- هل تعرف القراءة؟

- إنني لست غبياً لهذا الحد، عندما كُنت صغيراً حملوني للمدرسة، ولكني كنت حسن الحظ فأحسست بالتيفوس، وأصبحت أبله، وهكذا نجوت من المدرسة.

وضاق زوربا بأسئلتي.. لم يكن يفكر في شيء آخر غير الأرملة، فأمسك بساعدي، وتحول إلى ميميكو وأمره أن يسبقنا، ثم التفت إلي وقال:

- أريد أن أحدثك في أمر مهم.. إنني أعتمد عليك فلا تخذلني، ولا تخذل عنصر الرجال جميعا لقد بعث إليك الله بهذه القطعة المختارة من اللحم. وما دامت لك أسنان فانهش قطعة اللحم بأسنانك. أمدد يدك وخذها. لماذا أعطانا الخالق

هذه الأيدي؟ إنه أعطانا إياها لكي نأخذ بها ما نريد؛ فخذ هذه المرأة.. لقد رأيت في حياتي نساء كثيرات ولكني لم أر أشد فتنة من هذه الأرملة.

فأجبته في غضب:

- إنني لا أريد المتاعب. وشعرت بالضيق، إذ كنت في قرارة نفسي قد اشتهيت ذلك الجسد القوي الذي مر بي كما تمر أنثى الحيوان البري حين تبحث عن أليف

وصاح زوربا في ذهول:

- لا تريد المتاعب؟ ماذا تريد إذن؟

فلم أجبه، قال:

- إن الحياة هي المتاعب، ولا متاعب في الموت.. هل تعرف ما معنى أن يعيش الإنسان؟ معناه أن يشمر عن ساعديه ويبحث عن المتاعب.

فلزمت الصمت. كنت أعلم أن زوربا على حق، ولكني لم أجرؤ على مصارحته بذلك. لقد سارت حياتي في اتجاه خاطئ، وكانت صلتي بالناس أشبه بحديث من جانب واحد، وبلغ بي الأمر أنني لو خيرت بين الوقوع في حب امرأة، وقراءة كتاب عن الحب، لاخترت الكتاب..

واستطرد زوربا قائلاً:

لا تحسب حساب شيء يا سيدي، دع الأرقام وحطم الموازين، فهذا هو الوقت الذي ستنقذ فيه نفسك أو تدمرها.. أصغ إليَّ، خذ منديلاً واطوه على جنيهين أو ثلاثة، ولتكن جنيهات ذهبية، لأن أوراق النقد لا تُبهر الأبصار، وأرسل ميميكو بالمنديل إلى الأرملة، وعلمه أن يقول لها: "إن صاحب المنجم يبعث إليك بتحيته، ويرجوك قبول هذا المنديل ولكن حُبه أكبر من هديته، وإنها إذا كانت قد فقدت نعجتها، فإنه موجود وسيعوضك عنها، لقد رآك عندما مررت بالمقهى فطار

لُبه، ولن يبرئه سواك"، وعليك أن تضرب الحديد قبل أن يبرد، فتذهب إليها في المساء، وتدق بابها، وتقول لها أنك ضللت الطريق في الظلام، وتسألها أن تُعيرك مصباحاً، أو تقول أنك أحسست بدوار فجائي وتطلب منها قدح ماء، وأفضل من هذا وذاك، أن تبتاع نعجة تذهب بها إليها وتقول لها: "ها هي نعجتك التي فقدتها يا سيدتي.. لقد وجدتها لك"، فتدعوك الأرملة للدخول، لتُعطيك الجائزة التي وعدت بها من يجد النعجة، فتدخل.. يا الهي!! إنك ستدخل الجنة راكبًا فرساً إذا كُنت تبحث عن الجنة فهذه هي

ولا بد أننا اقتربنا من تلك اللحظة من حديقة الأرملة، فقد تنهد ميميكو وراح يُعبر عن شجونه بالأغنية الصبيانية التالية:

النبيذ للكستناء، والعسل للجوز والــفتاة للفتى، والفتى للفتاة.

وتوقف زوربا عن السير فجأة، وتنهد، وسألني وهو ينظر بعيني:

- ما قولك؟

وانتظر بفروغ صبر فأجبته في خشونة: "كفى" وأسرعت الخطى، فهز زوربا رأسه، وقال شيئا لم أسمعه، وعندما بلغنا الكوخ جلس القرفصاء ووضع السانتوري على ركبتيه وأحنى رأسه فوق صدره، واستغرق في التفكير والتأمل.

بدا عليه كأنه ينصت إلى أغنيات عديدة ليختار أجملها، وأخيرا حزم أمره، وبدأ يعزف أغنية رقيقة مؤثرة، وكان ينظر إلي من ركن عينه بين وقت وآخر حتى شعرت أنه يحاول أن يقول بالسانتوري ما لا يجرؤ على التعبير عنه بالكلام، وهو أنني أبدد حياتي وأضيعها هباء. وأني والأرملة حشرتان تعيشان بضع ثواني تحت الشمس ثم تموتان ويتقلص ظلهما إلى الأبد.

وأخيراً، نهض زوربا واقفا ولعله أدرك فجأة أنه يتعب نفسه بلا فائدة، فاستند إلى الجدار وأشعل لفافة تبغ وقال:

- سأذكر لك الآن شيئاً قاله لي رجل من أهل سالونيك. سأقوله حتى ولو لم يسفر عن نتيجة.

كنت في وقت ما بائعا جائلاً في مقدونيا، وكنت أزور القرى لأبيع الإبر والخيط والتوابل، وكان لي صوت عذب كصوت البلبل، ولعلك تعلم إن بعض النساء يفتنهن الصوت الجميل، وأي شيء لا يفتن أولئك الفاجرات، الله وحده يعلم ما في صدورهن. إنك قد تكون دميما كالإثم، وقد تكون أعرج أو أحدب، فإذا كان صوتك جميلاً رغم ذلك، وكان في استطاعتك أن تغني، فإن النساء يتهالكن عليك، حتى لتحار أيهن تختار.

وكنت أنادي على بضاعتي في سالونيك! وأطوف بها في الحي التركي، ويبدو أن ابنة أحد الباشاوات فتنها صوتي، فهجر النوم جفونها، ولما لم تُطق صبراً، أرسلت خادمها العجوز في طلبي، ولحق بي الشيخ وقال لي:

- تعال معي أيها الرومي.

- إلى أين تريد أن تأخذني.

- إن فتاة كالنبع العذب هي ابنة أحد الباشاوات تنتظرك في غرفتها فتعال معي أيها الرومي الشاب.

ولكني كُنت أعلم أنهم يذبحون المسيحيين ليلاً في الحي التركي فقلت له:

- كلا.. لن أذهب معك.

- ألا تخاف الله؟

- لماذا؟

- لأن من يستطيع النوم مع امرأة ولا يفعل، يرتكب إثماً عظيماً يُعاقبه الله عليه يوم القيامة وتكون جهنم مصيره

وتنهد زوربا وأردف قائلاً:

- إذا كانت هناك جهنم فسأذهب إليها لهذا السبب، ليس لأنني سرقت وقتلت وارتكبت المُنكر، وإنما لأنني ذات ليلة في سالونيك رفضت الذهاب إلى امرأة تنتظرني في فراشها.

وأشعل زوربا الموقد، وبدأ يطهو الطعام وهو ينظر إلي من ركن عينه ويبتسم في سخرية، وأخيرا هز كتفيه وتمتم قائلا:

- إنني كمن يدق باب رجل أصم.

الفصل التاسع

بدأ النهار يزداد قصراً، والضوء يزداد خفوتاً، والقلوب تضطرب قلقاً كلما أقبل المساء، وبدأ يخامرنا ذلك الهلع الفطري الذي كان يستولي على أسلافنا في شهور الشتاء كلما رأوا الشمس تعجل بالغروب يوما بعد يوم، ولعلهم كانوا يقولون لأنفسهم في يأس، (غدا ستذهب الشمس إلى الأبد) ثم يقضون الليل فوق الجبال وهُم يرتجفون خوفا وجزعا. وكان شعور زوربا بالقلق أعمق وأكثر بدائية من شعوري، ولكي يهرب من هذا الشعور كان يقضي في سراديب المنجم أطول وقت ممكن فلا يغادره إلا إذا تألقت النجوم في السماء. وكان قد وقع في أحد السراديب على نوع جيد من الفحم. نوع قليل من الرماد غني بالطاقة الحرارية، وسره ذلك وأثلج صدره؛ فقد كان عقله يطور أرباحنا تطويراً عجيباً ويحولها إلى رحلات ونساء ومغامرات جديدة.

كان ينتظر بفروغ صبر ذلك اليوم الذي تجتمع لنا فيه ثروة ضخمة، وتصبح أجنحته – هكذا كان يسمي النقود – كبيرة، لكي يطير ويحلق في الفضاء؛ ولهذا كان يقضي الليالي بطولها في اختبار نموذجه المصغر للسلك الهوائي، للبحث عن الانحدار المناسب لتحرك جذوع الأشجار ببطء من قمة الجبل إلى الشاطئ. وفي أحد الأيام، تناول ورقة كبيرة وبعض الأقلام الملونة، ورسم الجبل والغابة، وجذوع الأشجار المعلقة بالسلك الهوائي وهي تنحدر، وجعل لكل جذع جناحين، ثم رسم في الخليج الصغير زوارق سوداء وبحارة يرتدون ثياباً خضراء كالببغاوات، ووضع في الزوارق كتلا صفراء من جذوع الشجر، ورسم راهبا في كل من أركان الورقة الأربعة وكتب أمام فم كل راهب بحروف سوداء كبيرة: تبارك الخالق وما خلق.

ولاحظت خلال الأيام الأخيرة أن زوربا يُشعل الموقد على عجل، ويُعد

الطعام ويتناول عشاءه بسرعة ثم ينطلق إلى القرية، ويعود بعد فترة زائغ البصر مقطب الجبين، فإذا سألته: "أين كنت يا زوربا؟" أجاب: "دعنا من ذلك"، ويغير مجرى الحديث.

وفي إحدى الأمسيات، كان المطر يهطل مدراراً، ونحن أمام الموقد نتدفأ ونشوي بعض الكستناء، حين تحول زوربا إلي، وراح يجحدني بنظرة فاحصة طويلة، كما لو كان يحاول إماطة اللثام عن لغز عويص. ويبدو أن المحاولة أرهقته، لأنه ما لبث أن قال:

- ليتني أعرف ماذا يحببني إليك.. لماذا لا تمسك بأذني وتلقي بي إلى الخارج؟ إنني سأفسد أعمالك وأجلب عليك الدمار، فالق بي إلى الخارج وانفض يدك مني.

- أنا أحبك، وهذا يكفي.

- ولكن ألا ترى أن عقلي ليس له الوزن المناسب؟ ربما كان أثقل أو أخف وزناً مما ينبغي، ولكن ليس له الوزن المناسب، سأقول لك الآن شيئا أرجو أن تفهمه، إنني لم أعرف للراحة طعماً طيلة الأيام الأخيرة بسبب الأرملة، وأرجوك ألا تسيء فهمي، فأنا لا أريدها لنفسي ولن أمسها لأنني لست من طرازها، ولكني لا أريد أن يخسرها الجميع ولا أريد أن تنام وحدها. فذلك ليس من الصواب. إنني أطوف بحديقتها كل ليلة وهذا سر رحلتي للقرية كل مساء فهل تعرف لماذا؟ كي أرى ما إذا كان هناك من ينام معها، ليرتاح بالي وتطمئن نفسي.

فضحكت، قال:

- لا تضحك. إذا نامت امرأة وحدها فالذنب ذنبنا نحن الرجال وسوف

نحاسب عليه في يوم الدينونة.

وصمت لحظة ثم سأل فجأة:

- هل يمكن أن يعود الإنسان للدنيا بعد أن يموت؟

- لا أظن ذلك يا زوربا.

- وذلك هو رأيي، ولكن إذا قدر للإنسان أن يعود، فأكبر الظن أن أولئك الذين تخلفوا عن وظائفهم كرجال ونساء سوف يعودون إلى الدنيا على شكل بغال.. ومن يدري، فلعل جميع البغال التي نراها في هذه الدنيا هي الرجال والنساء الذين تخلوا عن واجباتهم، ولهذا نراهم دائماً يرفسون.. فما رأيك في ذلك؟

فأجبت ضاحكاً:

- رأيي أن عقلك أقل وزناً مما يجب، هلم للسانتوري يا زوربا.

- معذرة يا سيدي.. إنني لن أعزف الليلة، وإذا كنت قد أسرفت في أحاديثي السخيفة فهل تعلم لماذا؟ لأنني أحمل هموم الدنيا بسبب السرداب الجديد، وها أنت ذا تتحدث عن السانتوري.

وأخرج الكستناء من الموقد، وملأ القدحين بالعرق. قُلت:

- أسأل الله أن يرجح كفة الميزان اليمنى على كتفه الأيسر.

- بل لترجح الكفة اليسرى، إن رجحان اليمنى لم يُفدنا شيئاً حتى الآن.

وأفرغ الشراب في جوفه وقال:

- سأحتاج غداً لكل ذرة من قواي لأناضل آلاف الشياطين.. طاب مساؤك.

وخرج زوربا إلى المنجم في اليوم التالي مع أول خيوط الفجر. وكان العمال قد شقوا السرداب الجديد فتسرب الماء من جدرانه وسقفه ووجد الرجال أنفسهم يخوضون في أوحال سوداء، فأحضر زوربا بعض جذوع الأشجار لدعم جدران السرداب وسقفه. ولكنه كان قلقا، فقد أحس بغريزته التي جعلته يشعر بكل ما يصيب السرداب كما لو كان السرداب جزءا من جسده، بأن جذوع الأشجار وشرائح الخشب ليست من القوة كما ينبغي أن تكون، وسمع قرقعة خفيفة لم تسمعها أذن أخرى، توحي بأن سقف السرداب يئن من ثقل ما يحمل. وثمة شيء آخر أشاع القلق في نفس زوربا في ذلك اليوم. فإنه ما كاد يهم بدخول السرداب حتى مر به قس القرية، الأب ستيفانوس، ممتطيا بغلته، وهو في طريقه إلى راهبة تحتضر، ومن حسن الحظ أن زوربا وجد متسعا من الوقت لكي يبصق على الأرض ثلاث مرات قبل أن يتحدث إليه القس.

قال رداً على تحية القس:

- طاب يومك أيها الأب.

ثم أردف بصوت خافت:

- ولتهبط لعنتك علي.

وظن أنه بذلك قد وقى السرداب الجديد من شر القس وحسده. وكان جو السرداب مثقلاً برائحة الفحم والأسيتيلين، وكان العمال قد بدءوا فعلا في دعم السقف وتقويته بالأعمدة التي تحمله، فألقى عليهم زوربا تحية الصباح ثم شمر عن ساعديه، وبدأ العمل.

وأخذ بعض العمال في تحطيم كتل الفحم، بينما شرع البعض الآخر في وضعه بالعربات تمهيدا لنقله إلى الخارج. وفجأة، وقف زوربا عن العمل، وأمر العمال أن يحذوا حذوه وأرهف أذنيه.

وكما يفنى الفارس في جواده، والربان في سفينته، كذلك أصبح زوربا قطعة من المنجم، يشعر بكل تشعب فيه كما يشعر بنبض كل شريان في جسده. فبعد أن أرهف أذنيه الكبيرتين، أرسل بصره إلى جوف السرداب. وفي هذه اللحظة وصلت إلى المنجم.. فقد استيقظت فجأة وأنا متوجس، وكأن يدا خفية تدفعني، فارتديت ثيابي على عجل، وأسرعت بالخروج دون أن أعلم لماذا أسرع. أو إلى أين أذهب، ولكن قدميّ حملتاني دون تردد في الطريق إلى المنجم ووصلت إليه في اللحظة التي كان فيها زوربا يُرهف السمع وينظر حوله في قلق.. قال بعد لحظة:

- لا شيء.. ظننت أن.. ولكن لا بأس.. إلى العمل يا رجال.

ودار على عقبيه ورآني وقلب شفته.

- ماذا تفعل هنا في هذا الوقت المبكر؟

واقترب مني واستطرد قائلا في همس:

- لماذا لا تذهب لتستنشق بعض الهواء النقي؟ يمكنك أن تأتي في يوم آخر.

- ماذا حدث يا زوربا؟

- لا شيء، لقد تخيلت أشياء.. ولعل السبب أن أول إنسان وقع عليه بصري اليوم كان قسا... اذهب.

- إذا كان هناك خطر.. أفلا يكون من العار أن أذهب؟

- نعم.

- أترحل أنت؟

- كلا.

- إذاً؟

- إن ما يجب أن يفعله زوربا شيء، وما ينبغي أن يفعله الآخرون شي آخر، ولكن إذا كان من العار أن ترحل، فابق، فهذه جنازتك.

وتناول معولا، ونهض على أصابع قدميه ليدق مسمارا في السقف، بينما حملت مصباحا وخضت في الوحل لألقي نظرة على كتل الفحم اللامعة.

كانت هناك غابات شاسعة ابتلعتها الأرض منذ ملايين السنين وأحالت أخشابها فحما، ثم جاء زوربا و.. وأعدت المصباح إلى مكانه بالجدار ووقفت أرقب زوربا وهو يعمل. كان مُنصرفا إلى عمله مستغرقا فيه بكل حواسه، فهو لا يفكر في أي شيء آخر، وهو والأرض والمعول والفحم شي واحد، وقد اتحد مع المطرقة والمسامير في نضال ضد شرائح الخشب ليقوي السقف المنبعج، وهو يُعالج جدار الجبل ليخرج الفحم بالقوة تارة وبالحيلة تارة أخرى، ويضرب بمعوله في المواضع الضعيفة التي يمكن التغلب عليها، ويصدر في كل ذلك عن إحساس غريزي لا يخطئ أبدا.

رأيته وقد اكتسى بالوحل والتراب الأسود، فلم يبق ظاهرا منه إلا بياض عينيه، وخيل إلي أنه قد لجأ إلى التمويه وتنكر في صورة كتلة من الفحم حتى يستطيع مهاجمة غريمه على غرة منه، والانقضاض عليه في عقر داره.

ولم أستطع كتمان إعجابي فهتفت:

- أحسنت صنعا يا زوربا..

ولكنه لم يحاول أن ينظر إلي أو يحدثني، وكيف كان يمكنه في تلك اللحظة أن يتحدث إلي عن كثب، أيؤثر القلم والورق على المعول والفأس؟

ونظرت إلى ساعتي. كانت الساعة قد بلغت العاشرة فقلت:

- لقد حان وقت الراحة أيها الأصدقاء.

وعلى الفور، ألقى العمال بأدواتهم إلى أحد الأركان، وجففوا العرق المتصبب على جباههم، وتأهبوا لمغادرة السرداب. وكان زوربا لا يزال مستغرقا في العمل فلم يسمعني، ولو سمعني لما تحرك قيد أنملة.

وفجأة، أرهف زوربا أذنيه مرة أخرى، وظهرت على وجهه دلائل القلق. فقلت أحدث العمال:

- صبرا لحظة، ريثما أقدم لكم بعض السجائر.

فدار العمال بي، بينما أخذت أبحث في جيوبي عن علبة السجائر. وفي هذه اللحظة، كف زوربا عن عمله وألصق أذنه بجدار السرداب، ورأيته على ضوء المصباح يفغر فاه دهشة؛ فصحت به:

- ماذا هنالك يا زوربا.

وقبل أن يُجيب، حدثت فرقعة فوق رؤوسنا فصاح زوربا بصوت أجش:

- اخرجوا جميعا.. اخرجوا.

فانطلقنا نعدو نحو فوهة السرداب، وما كدنا نتجاوز السقالة الأولى حتى دوت فرقعة أخرى فوق رؤوسنا. وكان زوربا قد حمل جذع شجرة ضخم،

وراح يحاول أن يسند به السقف المتداعي، ولو نجح لأتاح لنا بضع ثوان قد نتمكن فيها من الفرار، وصاح زوربا مرة أخرى:

- اخرجوا.

ولكن صوته في هذه المرة كان خافتا مُختنقا كأنه صادر من بطن الأرض، وبالجبن الذي يُصيب الناس عادة في لحظات الخطر اندفعنا جميعاً نحو فوهة السرداب، وقد نسينا زوربا تماماً.. ولكني توقفت بعد بضع ثوان، وعدت أدراجي إلى السرداب وأخذت أصيح:

- زوربا... زوربا.

توهمت أنني أصيح، ثم أدركت أن الخوف قد خنقني، وأن صوتي لم يغادر حنجرتي وأحسست بالخجل، فوثبت نحو زوربا ومددت له يدي، وكان قد فرغ لتوه من دعم السقف وبدأ يعدو في الظلام طلباً للنجاة فاصطدم بي، وأحاط كل منا صاحبه بساعديه.

وصاح زوربا:

- يجب أن نخرج.. اخرج.

وانطلقنا نعدو بأقصى سرعة حتى وصلنا إلى الفوهة. وكان العمال قد اجتمعوا عندها والرعب يملأ نفوسهم. وما أن رأينا ضوء النهار، حتى سمعنا فرقعة ثالثة، أشبه بصوت شجرة تنكسر في العاصفة. أعقبها دوي كقصف الرعد هز المنطقة كلها، وانهار السرداب، وهتف بعض الرجال وهم يرسمون علامة الصليب على صدورهم: "يا إلهي". بينما صاح زوربا في غضب:

- أرى أنكم تركتم معاولكم هناك.

فصمت الرجال، وصاح زوربا ثانية:

- لماذا لم تأخذوا الأدوات معكم؟

- ليس هذا وقت البكاء على الأدوات يا زوربا، دعنا نحمد الله على أن الرجال نجوا بأنفسهم ... شكرا لك يا زوربا إننا جميعا ندين بحياتنا لك.

فقال زوربا:

- إن ما حدث جعلني أشعر بالجوع.

وتناول حقيبة، وكان قد تركها فوق صخرة بالقرب من المنجم ففتحها، وأخرج منها خبزا وزيتونا وبصلا، وقليلا من النبيذ.

وقال وفمه مملوء بالطعام:

- هلموا يا رجال... دعونا نأكل.

وراح يأكل بنهم، دون أن ينطق بكلمة، ثُم رفع إناء النبيذ إلى فمه، وشرب كل ما به، وأفرغ روع العمال، واستردوا شجاعتهم ورباطة جأشهم، فحملوا طعامهم وجلسوا على الأرض حول زوربا وراحوا يأكلون دون أن يحولوا أبصارهم عنه.. كان بودهم أن يُلقوا بأنفسهم على قدميه، وأن يُقبلوا يديه، ولكنه عُرف بينهم بالشدة وغرابة الأطوار فلم يجرؤ أحدهم على الدنو منه، وأخيراً جمع ميشيل (أكبر العمال سناً) أطراف شجاعته وقال مُحدثا زوربا:

- لولاك لأصبح أولادنا الآن أيتاماً أيها السيد أليكسيس.

فقال زوربا والطعام في فمه: "صه". ولم يجرؤ أحد بعد ذلك على الكلام.

الفصل العاشر

من أين خُلقت هذه المتاهة، هذا الصرح الذي يُمثل الغطرسة والوقاحة، هذا الحقل الذي يُنبت آلاف الخدع، هذا الباب الذي يؤدي إلى الجحيم، هذه السلة المليئة بالدهاء، هذا السُم الذي له مذاق العسل، هذه الأصفاد التي تغل البشر بالأرض المرأة.

وفي بطء وصمت، أخذت أسجل هذه الأغنية البوذية وأنا جالس على الأرض أمام الموقد، كانت هذه الأغنية وأمثالها هي بعض التعاويذ التي حاولت بها أن أطرد من ذهني صورة مغرية لامرأة مثيرة، قد بلل ماء المطر ثوبها فألصقه بجسدها وأبرز مفاتنها. امرأة ظلت تلح على خيالي وتتهادى أمام عيني جيئة وذهابا ليلة بعد ليلة، طيلة الشتاء.

والواقع أنني مُنذ حادث انهيار السرداب الذي كاد يودي بحياتي، كنت أشعر بالأرملة في دمي، وكانت تدعوني كما تفعل إناث الحيوان وتقول لي في إلحاح وعتاب:

- تعال.. تعال، إن الحياة تمر كومضة البرق، فتعال قبل فوات الأوان.

كانت تملأ الجو حولي في وحدتي، وتمر أمامي بلا انقطاع، لتغريني بمفاتن جسدها، وكنت أقاوم الإغراء في النهار بقوة إرادتي ويقظة عقلي، ولكن ما إن يُقبل الليل حتى تنهار إرادتي، ويُلقي عقلي سلاحه، وتُفتح الأبواب، وتدخل الأرملة، وهكذا كنت أستيقظ كل صباح خائر القوى مغلوبا على أمري، لكي أبدأ النضال من جديد، وكنت أقول لنفسي: "إنني لست وحدي، فهناك قوة أخرى تخوض المعركة معي، هي ضوء النهار، هذا الضوء ينتصر تارة ويهزمه ظلام الليل تارة أخرى، ولكنه لا ييأس، وأنا أناضل وآمل مع ضوء النهار.. ولا بد أن يكون زوربا قد لاحظ بذكائه

الفطري أي شيطان كنت أناضل، فقد قال لي في ليلة عيد الميلاد: "فيم تفكر؟ إنك على غير ما عهدتك".

فتظاهرت بأنني لم أسمعه ولكنه لم يكن الرجل الذي يتراجع بسهولة. قال:

- إنك لا تزال في مقتبل العمر..

ثم أردف في غضب ومرارة:

- إنك شاب قوي البأس تأكل جيدا وتشرب جيدا، وتستنشق هواءً نقياً، وتختزن قوة هائلة فماذا تصنع بها؟ إنك تنام وحدك كل ليلة، وهذا ضار بمن كان مثلك، فاذهب إليها الليلة ولا تضيع الوقت، كل شيء في هذه الدنيا بسيط، فلا تعقد الأمور.

فأخذت أصغي إليه، وأقلب صفحات كتابي عن بوذا وأصفر بفمي لأخفي مشاعري، ولاحظ زوربا أني لا أريد الإجابة فصاح:

- الليلة يا صديقي هي ليلة عيد الميلاد، فأسرع إليها قبل أن تغادر بيتها إلى الكنيسة.

فقلت له في ضجر:

- كفى يا زوربا.. إن لكل إنسان ميوله الخاصة، والإنسان كالشجرة. فهل تشاجرت مع شجرة يوما ما لأنها لا تثمر؟ بحسبنا هذا الآن... لقد كاد الليل أن ينتصف فهلم بنا إلى الكنيسة.

فقال زوربا في يأس وهو يضع قبعته:

- حسناً إذاً، هلم بنا إلى الكنيسة.

كانت السماء صافية تماماً والنجوم تبدو كبيرة متدلية من السماء ككرات من نار بينما بدا الليل كوحش أسود كبير يجثم على طول الشاطئ، وازدحمت الكنيسة

الدافئة بالقرويين، فوقف الرجال في المُقدمة أمام النساء، وعقد الجميع أيديهم فوق صدورهم، بينما أخذ الأب ستيفانوس بقامته الطويلة، وثوبه الموشى بالذهب، ووجهه الشاحب بعد صيام أربعين يوما. يروح ويغدو بخطى واسعة، ويترنم بأعلى صوته، وبسرعة، لكي يعود على عجل إلى بيته، حيث تنتظره مائدة مثقلة بالحساء والشواء وسائر الأطعمة الشهية، ولو لم تقل الكتب المُقدسة أن النور ولد في مثل هذه الليلة لما نشأت الأسطورة وملأت الدنيا، وتمر الحادثة كأية ظاهرة طبيعية عادية، دون أن يُلهب الأخيلة، ولكن النور الذي ولد في صميم الشتاء أصبح طفلاً، والطفل كبر لعشرين قرناً.

وغادرنا الكنيسة إلى فندق مدام هورتنس، حيث كانت في انتظارنا مائدة حافلة بالطعام والشراب، وكانت الغانية العجوز ترتدي فستانا طويلا ذا لون باهت وقد عقدت شعرها خلف رأسها، وأحاطت عنقها المجعد بشريط من الحرير الأصفر، وملأت جسدها في سخاء بعطر زهور البرتقال.

وأجال زوربا البصر حوله ثم همس في أذني قائلاً:

- أغلب الظن أن العجوز لن تُطلق سراحي الليلة.

وكان الوقت فجراً عندما غادرتهما في المخدع الصغير الدافئ، وسرت في طريقي إلى الكوخ.. كُنت سعيدا، وقلت لنفسي هذه هي السعادة الحقيقة أن يعيش الإنسان بلا مطامع ويعمل ويكد كأن له ألف مطمع وان يحب الناس ويعمل لخيرهم دون إن يكون في حاجة إليهم وأن يأكل ويشرب ويشترك في أعياد الميلاد دون أن يتورط في المتاعب أو يقع في الفخاخ، وأن يسير على الشاطئ والنجوم فوقه، والبحر إلى يمينه والأرض إلى يساره وأن يشعر بأن الحياة قد أنجزت معجزتها الكبرى فصارت قصة من وحي الخيال.

ومرت الأيام، وحاولت أن أصطنع المرح، رغم الحزن الذي كنت أشعر به في قرارة نفسي؛ فقد أزال أسبوع الأعياد الغابر عني كثير من الذكريات. ذكريات

عن موسيقى بعيدة، وأناس أحببتهم، وراعني صدق العبارة القديمة التي تقول: إن قلب الإنسان حفرة مليئة بالدم، وأولئك الأحباب الذين ماتوا يلقون بأنفسهم على حافة الحفرة وينهلون من الدم، وهكذا يعودون إلى الحياة وكلما كان حبكم لهم عظيما زادت الكمية التي ينهلونها من دمك.

وفي صباح أول يوم من العام الجديد. فتحت عيني على زوربا وهو يدق رمانة بباب الكوخ وانشقت الرمانة وتناثرت بذورها كحبات الياقوت الصافي، وسقط بعضها على الفراش؛ فتناولت بضع حبات وأكلتها وشعرت بانتعاش.

قال زوربا:

- عام سعيد يا صديقي.. أرجو أن يزخر بالمال والنساء

ثم اغتسل وارتدى ثيابه ومعطفه الروسي وفتل شاربيه.

- سأذهب الآن إلى الكنيسة بصفتي ممثلا للشركة التي تستغل المنجم، فليس من مصلحة العمل أن يظن القرويون أننا من المفكرين الأحرار.. إن ذلك لن يكلفني شيئاً، فضلاً عن أنه وسيلة لقضاء الوقت.

انحنى فوقي وقال وهو يغمز بعينه:

- ومن يدري ... فربما أجد الأرملة هناك.

وسمعت وقع خطاه وهو يبتعد، وعاودني الإحساس بالوحدة، فنهضت وارتديت ثيابي، وخرجت إلى الشاطئ. وكان الجو صافيا، والهواء باردا فسرت في الطريق إلى الشاطئ وأنا أسائل نفسي: "ترى من سيكون أول إنسان ألتقيه في هذا اليوم الأول من العام الجديد؟ آمل أن يكون طفلا يحمل بين يديه كومة من الهدايا، أو شيخا أشيب الشعر، يرتدي قميصه الأبيض المزركش، ويمشي في كبر وخيلاء لأنه أدى واجبه في الحياة بشجاعة.

وفجأة أحسست بيديَّ ترتجفان؛ فقد رأيت الأرملة بخصرها النحيل وجسمها المثير، ومرتدية ثوبا أحمر، وعلى رأسها منديل أسود وهي تسير بخطى نشيطة في الطريق إلى القرية.. كانت تنساب في رشاقة الفهد الأسود، وودت لو أستطيع الفرار، وأحسست بأن هذا الوحش لن يعرف الرحمة إذا غضب، وأن أفضل وسيلة لاتقاء خطره، هي الفرار، ولكن كيف؟

كانت الأرملة تقترب بسرعة، والحصى يصطك تحت قدميها كما لو كان جيشا برمته يسير فوقه. وأبصرت بي وهزت رأسها؛ فانزلق المنديل وظهر شعرها أسود لامعا كخافية الغراب.

وألقت إلي نظرة مغرية وابتسمت، وكانت في عينيها عذوبة غير مألوفة، وبسرعة أعادت وضع منديلها على رأسها وكأنما أخجلها أن أرى سرا من أخص أسرار المرأة، وهو شعرها..

وأردت أن أتحدث إليها، وأتمنى لها عاما سعيدا، ولكن الكلمات احتبست في حلقي كما احتبست يوم انهار السرداب وكانت حياتي في خطر. وعبث النسيم بأعواد النبات التي تحيط بحديقتها، وسقطت أشعة الشمس على ثمار الليمون والبرتقال، وازدهرت الحديقة أمام عيني حتى بدت كقطعة من الجنة، وتوقفت الأرملة عن السير ومدت يدها، وفتحت باب الحديقة ومررت بها في هذه اللحظة فانثنت ونظرت إلي. وتركت الباب مفتوحا، وسارت بين أشجار البرتقال، وهي تهز ردفيها. أي رجل في مثل هذا الموقف، كان يجب أن يغلق الباب، ويلحق بها، أو أن هذا ما كان يفعله جدي..

ثُم ابتسمت بمرارة وتمتمت قائلا:

- قد أتصرف خيراً من ذلك إذا قدر لي إن أعيش في عالم آخر.

وأحسست بالبرد، ومرت بجسدي رعدة. وعبثا حاولت أن أطرد الأرملة من مخيلتي، وأن أنسى حركة ردفيها، وابتسامتها وعينيها وصدرها، كلها ظلت ماثلة

أمامي حتى شعرت بأنني أختنق، ولم تكن الأشجار قد أورقت بعد، ولكن أغصانها كانت تنبض بماء الحياة، حتى لتحس بأن وراء كل نتوء ورقة. كانت معجزة الربيع الكبرى تتحفز سرا في صمت، ليلا ونهارا، وفي وسط الربيع، لكي تفجر الزهور والثمار من الخشب الجاف. وتركت الطريق وجلست تحت إحدى الأشجار. ولم أفكر في شيء وأحسست بالسعادة كما لو كنت أجلس تحت شجرة في الجنة، إلى أن سمعت صوتا يقول فجأة:

- ماذا تفعل هنا يا سيدي. إنني بحثت عنك في كل مكان وقد انتصف النهار أو كاد.. ألم تشعر بالجوع؟ أم لعلك نسيت الخروف الصغير الذي ينتظر في الفرن؟؟ إن رائحة الشواء تثير لعابي! فهلم بنا.

كانت حاجات الرجل الأساسية، الطعام والشراب والنساء والرقص، لا تُبارِح ذهنه أبداً. وكان يلوح في يده بحزمة ملفوفة بالورق الأحمر ومحزومة بخيط ذهبي فسألته وأنا أبتسم:

- أهذه هدية السنة الجديدة؟

فضحك ليخفي تأثره وأجاب:

- أنا أردت ألا أدع للمرأة المسكينة سبيلاً للشكوى، وحتى تذكر عصرها الذهبي الذي مضى.. أليست امرأة، أليس من شيم المرأة البُكاء على مصيرها.

- هلم بنا.

وعندما دنونا من القرية، اقترب زوربا مني وقال بصوت خافت:

- لقد رأيتها في الكنيسة يا سيدي. كُنت واقفاً في الصف الأول عندما أضاءت الأيقونات فجأة، وتألق النور في كل مكان فقلت لنفسي، ماذا حدث؟ هل دخلت الشمس الكنيسة؟

ونظرت حولي، وإذ بي أرى الأرملة فقلت وأنا أوسع الخطى:

- بحسبك هذا يا زوربا، وكفى.

ولكنه أسرع وراءي ومضى يقول:

- لقد رأيتها عن كثب، ورأيت الخال على خدها فطار لبي. وهذا الخال يا سيدي!! إنه كذلك لغز من الألغاز العويصة، وتكون البشرة لينة وناعمة، ثُم فجأة تظهر بها نقطة سوداء، فتُصبح خالاً يُذهب بصوابك، ماذا تقول الكتب في ذلك يا سيدي؟

- لتذهب الكتب إلى الشيطان.

فضحك زوربا وصاح:

- هذا كلام جميل.. الآن بدأت تفهم.

وكانت مدام هورنتس قد فرغت من طهو الحمل ووقفت بالباب تنتظرنا، كانت كالعهد بها، تُحيط عنقها بذلك الشريط الأصفر المقيت، وتضع، على وجهها وشفتيها أكداساً من المساحيق والدهون، وتحرص بذلك على أن تجعل من نفسها شيئاً يُثير الاشمئزاز.. وأبصرت المرأة بنا فإذا بالسرور على جسمها كله ورقصت عيناها في محجريهما واستقرتا على شارب زوربا، وأغلق زوربا الباب، واحتوى الغانية العجوز بين ساعديه وهو يصيح:

- عام سعيد يا بوبولينا.. انظري ماذا أحضرت لك!!

وما أن أطلقها زوربا حتى خطفت الحزمة وفضتها وأطلقت من فمها صيحة فرح؛ فانحنيت إلى الأمام لأرى الهدية، كانت عبارة عن قطعة سميكة من الورق الكرتون، رسم عليها زوربا بالألوان أربع بوارج ضخمة تُرفرف عليها الأعلام، وفوق الأمواج، بين البوارج الأربع، صورة امرأة يتطاير شعرها في الهواء، والمرأة تُشبه مدام هورنتس بكل قسمات وجهها وجسمها، وبالشريط الأصفر الذي يُحيط عنقها، وقد أمسكت بزمام أربعة خيوط ثُبتت أطرافها بأربع بوارج تُرفرف عليها الأعلام

الإنجليزية والروسية والفرنسية والإيطالية، بينما برزت في أربعة أركان اللوحة أربع لحى، سوداء وشقراء وحمراء وشهباء.. وفهمت الغانية معنى الصورة على الفور وصاحت وهي تُشير بإصبعها إلى اللوحة: "ها أنا ذا". وتنهدت، وقالت في شيء من الخيلاء:

- لقد كنت في وقت ما قوة عظمى.

ورفعت مرآة صغيرة كانت مُثبتة بجدار على مقربة من قفص الببغاء، ووضعت اللوحة مكانها.. وكان زوربا قد تسلل إلى المطبخ؛ فجاء بالحمل المشوي وزجاجة نبيذ، وملأ الأقداح ثم صفق بيديه وصاح: "إلى الطعام".

ثم التفت إلى الغانية واستطرد:

- المعدة أولا، وبعد ذلك نهتم بما عداها. ولكن الغانية العجوز عكرت الجو بتنهداتها.

كانت بداية كل عام جديد بمثابة يوم الدينونة بالنسبة إليها، وكلما انصرم عام، نظرت وراءها، واستعرضت ماضيها، وبعثت من قيود ذاكرتها، ذكريات مُدن كبرى، وملابس حريرية، وزجاجات شمبانيا، ولحى معطرة.

غمغمت قائلة:

- لا رغبة لي في الطعام.

ونهضت إلى الموقد فركعت أمامه، وراحت تحرك النار بينما جلس زوربا مترددا بين المضي في تناول الطعام الشهي دون أن يعبأ بها، أو مواساتها بكلمة طيبة ترد عليها بهجتها وقابليتها للطعام. واتخذ قراره آخر الأمر فجثا بجانبها وقال يلاطفها:

- إذا لم تأكلي يا ساحرتي الصغيرة انتهى كل شيء؛ فرحمة بالحمل الوديع، التهمي هذه القطعة منه.

ودس في فمها قطعة من اللحم، ثم أحاطها بساعديه وأنهضها وأجلسها بيننا، ومسحت المرأة عينيها الحمراوين بظاهر يدها وأقبلت على الطعام، وقال زوربا وهو يرفع قدحه:

- نخب صحتك يا بوبولينا... أسأل الله أن يهبك في هذه السنة بعض الأسنان الجديدة، وأن يملأ حاجبيك بالشعر الكثيف، وأن يهديك إلى التخلص من هذا الشريط المزعج الذي تحيطين به عنقك، وأن تقوم في كريت ثورة جديدة حتى تعود إليك بوارجك الأربع، ومع كل بارجة أميرالاي بلحية معطرة، وأن تسبحي فوق قمم الأمواج مرة أخرى ويرتفع صوتك العذب، وان تتحطم البوارج على هاتين الصخرتين البارزتين..

قال ذلك ومد يده الضخمة إلى صدرها المُترهل، فتنهدت المرأة وقالت:

- هل يُمكن أن يحدث ذلك يا زوربا، إن الشباب إذا ذهب لا يعود.

- أصغ إليَّ يا صغيرتي، لأحدثك عن الهدية التي سأقدمها إليك.. لقد ظهر طبيب جديد يقوم ببعض المعجزات.. إنه يعطيك جرعة من دواء فتعودين إلى سن العشرين، أو الخامسة والعشرين على أسوأ تقدير.. لا تبك أيتها العزيزة، فقد أرسلت إلى أوروبا في طلب هذا الدواء..

فبهتت الغانية، وأحاطت عنق زوربا بساعدها، وقالت وهي تحتك به كما تفعل الهرة:

- شكرا لك ألف شكر، إذا كان الدواء سائلاً فأطلب ملء زجاجة كبيرة، وإذا كان مسحوقاً فسأطلب ملء إناء كبير.

وجلست الغانية على ركبتي زوربا وألقت برأسها على كتفه وتنهدت، وكانت قد أسرفت في الشراب وثملت، وسألها زوربا:

- فيم تفكرين يا بوبولينتي المحبوبة؟

- في الإسكندرية وبيروت والقسطنطينية، في الأتراك والشوارب الطويلة والطرابيش الحمراء.

وتنهدت مرة أخرى، وأزالت الغبار عن ذكرياتها، قالت:

- عندما كان علي بك يقضي سهرة عندي، كان الموسيقيون يعزفون في فناء البيت وكان علي بك يُلقي إليهم حفنات من النقود ليعزفوا حتى الفجر، وكان جيراني يسمعون الموسيقى ويتميزون غيظاً ويقولون في حسد: "إن علي بك عندها". وفي القسطنطينية لم يكن سليمان باشا يسمح لي بمغادرة بيته في أيام الجمعة، خوفا من إن يراني السلطان وهو في طريقه إلى المسجد فيبهره جمالي ويختطفني، وكان كلما خرج إلى عمله في الصباح، أمر ثلاثة من الآغوات بملازمة بابي، ليمنعوا أي رجل من دخول غرفتي.. آه.. تلك الأيام.. ما كان أجملها!!

وتضايق زوربا وتخلص من المرأة بأن أجلسها على مقعد بجواره، وكانت هناك قطتان تموءان وتتشاجران في الخارج فتناول زوربا عصاه وانطلق إلى الخارج، فصحت به ضاحكا:

- من ستضرب بعصاك يا زوربا: سليمان باشا؟

- بل سأضرب القطتين اللعينتين اللتين لا تتركانا في سلام.

وعندما جاء زوربا كانت مدام هورتنس تغط في نومها وتحلم بالشرق والشوارب والبوارج فنظر إليها زوربا باحتقار وقال:

- لقد نامت الفاجرة.

- أظن ذلك يا زوربا باشا، ولعلها تحلم الآن بأنها قد تناولت العقار الجديد، وعادت إلى سن العشرين.

- قبحها الله من بقرة قذرة.. أنظر إليها كيف تبتسم في نومها، هلم بنا.

وخرجنا إلى الهواء البارد وإلى القمر المضيء، وساد الصمت بيننا بضع لحظات إلى أن قال زوربا:

رحم الله جدي.. قال لي، احذر المرأة فإنها شيطان، وإذا لمستها فقد لمست الشيطان.. لقد سرقت تفاحتين من جنات عدن وأخفتهما في صدرها، وهي الآن تختال بهما، ومن أكل منهما فقد هلك.

ومررنا بحديقة الأرملة، فتوقف زوربا عن السير، وكانت الخمر والطعام الجيد ونور القمر كلها قد لعبت برأسه، فاشرأب بعنقه نحو الحديقة وقال بصوت أجش:

- وهنا شيطان آخر.

وكان الفجر قد بزغ عندما وصلنا إلى الكوخ، فاستلقيت على فراشي وأنا مُتعب منهوك القوى، أما زوربا فقد اغتسل وأشعل الموقد وصنع بعض القهوة ثم جلس على الأرض بجوار الباب وراح يدخن في هدوء. وينظر إلى البحر دون أن يأتي بحركة. وتأملته وهو جالس في ضوء القمر كأنه صنم، وأعجبت بالمرونة والبساطة اللتين يتأقلم بهما، وبالطريقة التي يتواءم بها جسده وروحه مع كل شيء آخر من نساء وخبز وماء ولحم، ليتكون من الجميع شيء اسمه زوربا. والواقع، أنني لم أر قط مثل هذا التحالف الودي بين إنسان والعالم الذي يحيط به. ومال قرص القمر وشحب لونه، وهدأ البحر وسكنت أمواجه، وألقى زوربا لفافة التبغ، وتناول قفصاً وأخرج منه حبلاً وقطعاً صغيرة من الخشب، ثم أشعل المصباح الزيتي وراح يقوم بتجاربه على النموذج مصغر للسلك الهوائي. ومن الواضح أنه كان يقوم بعمليات حسابية معقدة لأنه كان يحك رأسه حينا ويسب ويشتم حينا آخر، وفجأة ضاق ذرعا بالعملية كلها، فركل النموذج وأرسل أجزاءه تتطاير في الهواء.

الفصل الحادي عشر

غلبني النعاس فنمت، وعندما استيقظت في الصباح كان زوربا قد انصرف وكان البرد شديداً، ولم تكن بي رغبة إلى مغادرة الفراش فقررت أن أقضي وقتي مع الكتب، ولم يعد زوربا إلا في المساء، وكان مشرق الوجه، وخيل إلي أنه وجد حلاً لإحدى المشكلات؛ فانتظرت لأعرف ما عنده، وكنت قد بدأت أضيق به، ومنذ بضعة أيام دعوته إليَّ وقلت له في غضب:

- لقد فرغت نقودنا يا زوربا أو كادت، فإذا كان هناك ما يُمكن عمله، فعجل به. أنشئ ذلك السلك الهوائي، فإذا فشلنا في المنجم، أمكننا أن نستفيد من الخشب. إنما يجب أن تُعجل وإلا أفلسنا.

فحك رأسه وقال:

- تقول إن نقودنا فرغت؟ هذا لن يؤسف له.

- نعم يا زوربا لقد ابتلع المنجم بعضها، وأكلنا البعض الآخر، فافعل شيئاً، كيف انتهت تجاربك؟ ألم توفق بعد؟

فأطرق برأسه ولم يُجب، وبدا علي الخجل، وما لبث أن صاح في غضب:

- ذلك المنحدر اللعين!! سوف أظفر به مهما كلفني الأمر.

وها هو قد أقبل الآن بوجه مشرق، وعلى شفتيه ابتسامة عريضة.. صاح:

- لقد نجحت ونجحت في معرفة الزاوية الصحيحة التي حيرتني كل هذا الوقت.

- إذاً فعجل بالعمل يا زوربا لماذا تنتظر؟

- يجب أن أذهب إلى المدينة غدا صباحا لشراء أسلاك الصلب والطنابير والمسامير والأدوات الضرورية وسأعود على وجه السرعة.

وأشعل الموقد بعد ذلك وأعد طعاما وأكلنا بشهية جيدة، وفي صباح اليوم التالي، رافقت زوربا إلى القرية ودار بيننا في الطريق حديث جرى عن العمل في المنجم، وفيما كنا نهبط منحدرا، ضرب زوربا بقدمه حجرا، فتدحرج الحجر في المنحدر، ووقف زوربا مبهوتا، وكأنه يرى هذا المنظر لأول مرة في حياته والتفت إلي وقال:

- هل رأيت؟ إن الحياة تعود للحجارة في المنحدرات.

فلم أجبه، ولكني شعرت بسرور وبهجة، وقلت لنفسي:

- هكذا ينظر كبار الشعراء والمفكرين إلى الأشياء كأنهم يرونها لأول مرة، والواقع أنهم لا يرونه وإنما يخلقونه.

وقد كانت الدنيا في نظر زوربا كما كانت في نظر الإنسان الأول، مجرد مشهد كبير رائع، فالنجوم تتألق فوق رأسه، وأمواج البحر تنكسر تحت قدميه، وهو يعيش مع الأرض والماء والحيوان والله، دون أن يفسد عليه التفكير العقيم متعة الحياة.

وعلمت مدام هورتنس بأمر سفر زوربا، ووجدناها في انتظارنا بباب بيتها، وكذلك كان البغل الذي سيمتطيه زوربا في رحلته. ووثب زوربا إلى ظهر البغل وأمسك بالسرج، واقتربت الغانية العجوز في حياء ووضعت يدها على صدر البغل، وكأنها تريد أن تمنع صاحبها من الرحيل. ووقفت المرأة على أصابع قدميها وهمست:

- زوربا.. زوربا.

ولكن زوربا أشاح عنها بوجهه، كان يكره سماع سخف العشاق على قارعة الطريق.. ورأت المرأة النظرة الرهيبة التي ارتسمت في عينيه؛ فذعرت، ولكنها ظلت مُمسكة بصدر البغل، وعيناها تتطلعان إلى زوربا في ضراعة.

وصاح زوربا في غضب:

- ماذا تريدين؟

فقالت متوسلة:

- زوربا... لا تنسني يا زوربا، وكن كريما.

فهز عنان البغل ولم يُجب، وانطلق به البغل فصحت:

أرجو لك التوفيق يا زوربا. عد بعد ثلاثة أيام لا أكثر.. هل سمعتني؟

فتحول إلى الوراء ولوح لنا بيده، فبكت المرأة، ورسمت الدموع خطوطا وسط المساحيق والأصباغ التي تغطي وجهها. وبعد لحظات، توارى زوربا بين أشجار الزيتون، فنظرت مدام هورتنس حولها كمن ينظر إلى فراغ.

لقد أقفرت دنياها بعد رحيل زوربا، ولم أعد إلى الشاطئ فقد كنت أشعر بحزن ووحشة وإنما سرت في الطريق إلى الجبل.

وقبل أن أخطو بضع خطوات، سمعت دقات الطبلة التي يعلن بها موزع البريد وصوله إلى القرية، ورأيت الرجل يلوح لي بيده، فقابلته في منتصف الطريق، وأعطاني حزمة من الصحف والمجلات ورسالتين، وعلى الفور أودعت إحدى الرسالتين جيبي لأقرأها في هدوء الليل، فقد كنت أعرف كاتبها، وأردت أن يطول شوقي إلى مضمونها قبل أن أفضها، وكذلك عرفت صاحب الرسالة الثانية من خطه على غلافها، ومن طابع البريد العجيب الذي تحمله.

كان من زملائي القدامى في المدرسة، ويُدعى كرايانيس وكان يقيم في ذلك الوقت في بلد جبلي بالقرب من (تنجانيقا)، وقد عرفته شابا أسود البشرة عصبي

المزاج، يصيح أكثر مما يتكلم، ويتشاجر أكثر مما يناقش. كان أستاذاً في علم اللاهوت وراهبا، وقد فوجئ ذات يوم وهو يُقبل إحدى تلميذاته في أحد الحقول، فخلع مسوح الرهبنة ورحل في اليوم التالي إلى إفريقيا حيث أنشأ مصنعاً للحبال، وجمع ثروة طائلة. وكان يكتب إليَّ بين وقت وآخر، ليدعوني إلى قضاء بضعة شهور معه في إفريقيا. جلست فوق حجر على جانب الطريق، وفضضت الرسالة، وقرأت فيها ما يلي:

"متى ستحزم أمرك وتأتي لزيارتي أيها الرجل الذي استعبدته جبال اليونان وشواطئها؟ أكبر الظن أنك أصبحت من عشاق الحانات والمقاهي كسائر المواطنين اليونانيين!!.. هذا يوم الأحد، ولا عمل عندي، وأنا أكتب إليك من ضيعتي والشمس كالأتون، والأمطار لم تهطل منذ بضعة شهور، ولكنها عندما تهطل في أبريل ومايو ويونيو، تُصبح كالطوفان.

يوجد هنا كثير من اليونانيين، إنهم في كل مكان كالحشرات، ولكني لا أختلط بهم فهم يُثيرون اشمئزازي وقد جلبوا معهم الجذام والقمار والجهل وسائر الخطايا.. إنني أكره الأوروبيين، ولذلك لجأت إلى هذه الجبال، ولكني أكره اليونانيين أكثر من أي شعب آخر، ولن أعود إلى اليونان ما حييت وقد شيدت قبري هُنا أمام بيتي ونقشت عليه هذه الكلمات بحروف كبيرة (هُنا يرقد يوناني يكره اليونانيين). أنا لا أعرف ملهاة غير العمل فأنا أكد وأكدح وأناضل الأرض والريح والمطر والعُمال وأنفق أموالي كما أريد، لأنني أستعبد المال والمال لا يستعبدني، ولكني عبد للعمل وأفخر بذلك، إنني أشتغل بتجارة الأخشاب، وقد أنشأت مصنعا للحبال وسأشرع في زراعة القطن. متى ستأتي، لنتسلق معا هذه الجبال النقية العذراء؟ لقد رزقت بابنة من امرأة سوداء ولكن الأم أهدرت شرفي في وضح النهار وتحت كل شجرة في المنطقة فطردتها.

والطفلة الآن في الثانية من عمرها وقد علمتها من اللغة اليونانية القدر الذي يساعدها على سب اليونان وأهلها. وهي تُشبهني ولكن أنفها مفرطح كأنف أمها،

وأنا أحبها كما تحب كلبا أو قطا.. تعال وتزوج من امرأة زنجية لترزق منها ولدا نزوجه من ابنتي، لمجرد اللهو".

وتملكتني رغبة في الرحيل إلى إفريقيا لا لأنني أفتقد السعادة والجدية في كريت، وإنما لأنني كنت أصبو دائما إلى زيارة أكبر عدد من بلاد العالم قبل أن أموت. وعدلت عن تسلق الجبل، وسرت في طريقي إلى الكوخ لكي أنعم بقراءة الرسالة الثانية. وهناك أشعلت نارا وأعددت قدحا من الشاي وتناولت بعض الخبز والعسل ثم خلعت ثيابي وتمددت على فراشي وفضضت الرسالة وقرأت فيها ما يلي:

"أستاذي وصديقي.. إنني أضطلع هنا بمهمة على جانب عظيم من الصعوبة والخطورة، هي محاولة إنقاذ نصف مليون يوناني في جنوب روسيا والقوقاز! وأكثرهم يتحدثون بالتركية أو الروسية، ولكن قلوبهم جميعا تتحدث باليونانية.. إنهم جزء من شعبنا، وبحسبك أن ترى عيونهم اللامعة وبسماتهم الماكرة، ورؤوسهم المرفوعة في كبرياء وصلف وأن تعرف كيف كافحوا وناضلوا حتى سادوا المنطقة وصار لهم عبيد وخدم، لكي تدرك أنهم حقا أحفاد بطلنا العظيم (أوديسيوس) وأن من واجبنا أن نحبهم ونقاتل من أجلهم ولا ندعم يهلكون.. لقد فقدوا كل ما يملكون، وهم اليوم جياع عراة، يطاردهم الروس من ناحية، والأكراد من ناحية أخرى، وآلاف اللاجئين يفدون من شتى المناطق للإقامة في بعض مدن جورجيا وأرمينيا. وليس ثمة طعام أو دواء أو غطاء، وآلاف آخرون يقفون بالموانئ وينظرون إلى الأفق في قلق، لعلهم يرون سفينة يونانية تعود بهم إلى أرض الوطن.. إن هذا الجزء العزيز من شعبنا يعيش في ذعر وهلع، وإذا تركناه لمصيره فسوف يهلك، ولكنا بحاجة إلى كثير من الحب والفهم والحماسة والبذل والتفكير السليم لكي ننقذه ونعيده سالما إلى بلدنا الحر الذي هو بحاجة إلى كل ابن من أبنائه. إنني أذهب إلى القرى والمدن لأجمع اليونانيين معاً، كما أكتب التقارير وأرسل البرقيات إلى المسئولين في أثينا لكي يبعثوا إلينا بالسفن والطعام والثياب والأدوية، وإذا كان

النضال في حماسة وإصرار يجلب لصاحبه السعادة، فأنا إذن جد سعيد.. أنت الآن قابع على شاطئ (كريت) تنصت إلى أمواج البحر وتصغي إلى نغمات (السانتوري) لأن لديك متسعا من الوقت، أما أنا فإنني في دوامة من العمل والنشاط وأنا سعيد بذلك.

إن العمل، والعمل المتواصل، يا أستاذي الخامل، هو صخرة النجاة لمن كان مثلنا.. أنا الآن بمدينة (كارس)، وقد جئت إليها أجمع اليونانيين من القرى المجاورة، وحدث في يوم وصولي أن اختطف الأكراد معلما وقسا من اليونانيين ودقوا حدوة حصان في قدم كل منهما، وكانت النتيجة أن دب الذعر في قلوب رؤساء الجالية اليونانية فلجئوا إلى البيت الذي أقيم فيه.. إن دوي مدافع الأكراد يزداد اقتراباً كل ساعة وعيون اليونانيين جميعاً تتعلق بي، كما لو كنت الإنسان الوحيد الذي يستطيع إنقاذهم.

لقد كان في نيتي الرحيل إلى (تفليس) غدا، ولكني وجدت أن من العار أن أرحل بينما الخطر يدنو من مواطني، ولا أقول لك إنني لست خائفا، الواقع أني خائف ولكني أشعر بالخجل، تُرى ماذا يفعل محارب (رمبران) لو أنه وجد نفسه في مثل مركزي؟

أعتقد أنه يبقى، ولذلك سأبقى وإذا دخل الأكراد المدينة فمن المُحقق أنني سأكون أول إنسان يدق حدوة حصان في قدمه.. فهل خطر ببالك يوما يا أستاذي أن هذا سيكون مصير تلميذك؟.. لقد قررنا، بعد مناقشة حادة من تلك المناقشات اليونانية التي لا تنتهي، أن يجتمع اليونانيون الليلة، وأن يجمعوا نساءهم وأطفالهم وبغالهم وجيادهم استعدادا للرحيل عند الفجر، وسوف أكون أنا الكبش الذي يتقدم القطيع عبر سلسلة من الجبال والوديان.

ستكون هجرة جماعية أشبه بهجرة بني إسرائيل وسأكون أنا (موسى) هؤلاء المهاجرين ودليلهم إلى الأرض الموعودة. أرجو أيها الصديق والأستاذ أن تصلك

هذه الرسالة، لأنها قد تكون الأخيرة.. إنني لا أؤمن بالقوى الخفية التي تحرس الناس، وإنما أؤمن بالقوى الغاشمة التي تضرب يمينا ويسارا بلا حقد وبغير قصد، لتقتل من يوقعه سوء حظه في طريقها. على إنني إذا وجدت نفسي في خطر الموت، فسوف أتصل بك أينما كنت، لكي أنذرك كما اتفقنا.

الفصل الثاني عشر

مرت ثلاثة أيام وأربعة وخمسة ولما يعد زوربا، وفي اليوم السادس تلقيت رسالة من مدينة (كانديا) تتألف من بضع صفحات من ورق عادي معطر وفي ركن كل ورقة صورة قلب يخترقه سهم. ويبدو أن زوربا تعود أن يمسك بالقلم كما يمسك بالفأس، فقد كانت الصفحات مليئة بالثقوب وبقع الحبر. وفيما يلي مضمون الرسالة بعد تصحيح أخطائها الهجائية واللغوية:

عزيزي الرأسمالي.. يسرني أن أتناول القلم لأكتب إليك مستفسراً عن صحتك، أما أنا ففي خير حال والحمد لله، لقد أدركت من بعض الوقت أنني لم أجيء إلى هذه الدنيا لأكون حصانا أو ثورا، فالحيوانات وحدها هي التي تأكل لتعيش، ولكي تنسحب على هذه الصفة، فإنني أخلق لنفسي عملاً ليلا نهارا، وكثيرا ما أضحي بمصدر رزقي من أجل فكرة، لأني أعمل بالمثل القائل "عصفور نحيل على الجسر، أفضل من ببغاء سمينة في القفص". إن كثيرا من الناس يفخرون بوطنيتهم دون أن تكلفهم الوطنية شيئاً، أما أنا فلست وطنيا، ولن أكون، مهما كانت تكاليف الوطنية. وكثير من الناس يفكرون طويلاً، ويعصرون أذهانهم أما أنا فلا حاجة بي إلى التفكير، فالخبر الطيب لا يسرني، والخبر السيئ لا يحزنني، وسيان عندي أن يستولي اليونانيون على القسطنطينية، أو يستولي الأتراك على أثينا. الشيء الوحيد الذي يهمني، هو هل أنا حي أو ميت؟ وعلى ذكر الحياة والموت، أود أن أحدثك عن أمر يزعجني ويقض مضجعي، وأعني به الشيخوخة.

إن الموت لا يهمني، فالحياة شمعة تطفئها لفحة هواء. أما الشيخوخة فإنها عار وفضيحة ولهذا أبذل قصارى جهدي لأمنع الناس من الاعتقاد بأنني كبرت.

إنني أرقص، فيؤلمني ظهري، ولكني أواصل الرقص وأشرب، فتدور الدنيا بي ولكي أستمر في تناول الشراب كما يفعل الآخرون، وأنا ألقي بنفسي في ماء البحر وأصاب بالبرد، ولكني أغالب السعال، حتى لا أتهم بالضعف والشيخوخة. هل تذكر أنك سمعتني مرة أسعل؟... أبداً.. وأنا لا أخجل من الضعف والشيخوخة أمام الناس فحسب، وإنما أخجل منهما أمام نفسي كذلك.. أخجل منهما أمام زوربا، فما قولك في ذلك يا أستاذي؟ إن في أعماقي شيطانا اسميه زوربا، وزوربا الداخلي لا يحب الشيخوخة، ولم تتقدم به السن، ولن تتقدم.. أما زوربا الخارجي فقد ضمر جسده وشاب شعر رأسه وسقطت أسنانه وأحدثت الأيام شقوقا عميقة في وجهه. ولكن إلى متى سيستمر الصراع بين هذين الزربيين؟ وأيهما سيظفر بصاحبه؟ إذا مت عاجلا كان ذلك الخير كله، أما إذا امتد بي الأجل طويلا فسيأتي يوم أخسر فيه الحرية والكرامة. ستطلب إلى ابنتي وابني أن أحمل ذراريهما، أولئك الشياطين الصغار، وأن أسهر على سلامتهم، وأنظف قذارتهم، ومن المحقق أنك ستمر كذلك بمثل هذا العار يوما ما ولذلك أرجو أن تصغي إلي، وأن تعمل بنصيحتي. دعنا نذهب إلى الجبال لنخرج من مناجمها الفحم والحديد والنحاس فإذا نجحنا وأصبحنا من ذوي الثراء احترمنا الأقارب ولعق الأصدقاء أحذيتنا ورفع الجميع قبعاتهم لنا.. أما إذا لم ننجح، فهناك ذئاب ووحوش يمكنها أن تتكفل بنا، فما خلق الله الوحوش إلا لتأكل أمثالنا، وتجنبهم مذلة الفقر وضياع الكرامة.

وهنا رسم زوربا صورة لرجل طويل نحيل يلوذ بإحدى الأشجار، بينما سبعة ذئاب تطارده وتجد في أثره وكتب تحت الصورة بحروف كبيرة: (زوربا والخطايا السبع) ثُم مضى في رسالته يقول: سأقص عليكم الآن ما حدث لي في (كانديا) لأنني بحاجة إلى نصائحك انك أصغر مني سنا بطبيعة الحال، ولكنك قرأت كتب الحكمة القديمة، وأصبحت إلى حد ما – ومعذرة من هذا التعبير – من الطراز القديم.. أنا أعتقد أن لكل إنسان رائحة خاصة، وإننا لا نلاحظ ذلك لأن روائحنا جميعا يمتزج بعضها ببعض، فيتعذر علينا تمييزها ورد كل رائحة إلى صاحبها..

كل ما نعلمه هو أن هذه الروائح في مجموعها تؤلف رائحة واحدة خبيثة هي التي نسميها (البشرية) وبعض الناس يحبون هذه الرائحة ويشمونها كما لو كانت عطرا، أما أنا فإنها تثير اشمئزازي.

بيد أن للنساء أنوفاً كأنوف الكلاب، يميزون بها رائحة الرجل الذي يرغب فيهن، ولعل ذلك هو السبب في أنني ما أكاد أضع قدمي في مدينة، وعلى الرغم من شيخوختي ودمامتي، ورثاثة ثيابي، حتى أجد امرأة أو امرأتين تطاردانني وتقطعان علي السبيل.

صفوة القول: إنني عندما وصلت إلى (كانديا) في الغسق، كانت الحوانيت كلها مغلقة، فقصدت إلى إحدى الحانات، حيث تناولت بعض الطعام وعلفت البغل، ثم خطر لي أن أتجول قليلا في شوارع المدينة، لم أكن أعرف أحدا فيها، ولا أحد فيها يعرفني، كنت حرا أصفر في الطريق وأضحك وأتحدث إلى نفسي، وكانت مصابيح الشوارع قد أضيئت، والطرق حافلة بالنساء، ورائحة العطور والمساحيق تختلط في الجو برائحة الشواء، فقلت لنفسي: "كم بقي لك من العمر يا زوربا... لماذا لا تستمتع بأيامك القليلة الباقية؟"

وكنت في هذه اللحظة أجتاز الميدان الكبير، ولا شك أنك تعرفه فسمعت صيحات ونغمات موسيقى راقصة، فأرهفت أذني جيدا لأتبين مصدرها فإذا المصدر أحد الكباريهات الغربية، وهذا ما كنت أنشده، فدخلت الكباريه وجلست أمام إحدى الموائد، ورأيت امرأة بدينة ترقص على المسرح، وترفع ذيلها، ولكني لم ألق لها بالا وطلبت قدحا من الجعة، وما هي إلا لحظة حتى أقبلت مخلوقة سمراء صغيرة خفيفة الظل فجلست بجانبي وقالت وهي تضحك: "أتسمح لي بالجلوس يا جدي؟"

فصعد الدم إلى رأسي، ووددت لو أدق عنقها، ولكني تمالكت نفسي ودعوت الخادم وطلبت إليه أن يحضر زجاجتين من الشمبانيا. ومعذرة يا سيدي إذا

كنت قد أنفقت بعض مالك، ولكن الإهانة كانت شديدة، وكان لا بد لي أن أنقذ شرفنا، شرفك وشرفي، وأن أرغم هذه الصغيرة المستهترة على الركوع تحت أقدامنا، وأنا واثق أنك ما كنت لتتخلى عني في مثل هذا الموقف الدقيق..

وأحضر الخادم الشمبانيا، ومزيدا من الشمبانيا، ثم مر رجل يبيع الياسمين، فاشتريت السلة كلها، وأفرغتها في حجر التافهة العابثة التي تجرأت على إهانتنا، وشربنا، وأسرفنا في الشراب، وأقسم لك إنني لم أحاول مغازلتها.. عندما كنت شابا، كانت المغازلة هي الخطوة الأولى، أما الآن بعد أن كبرت، فإن أول شي أفعله هو أن أنفق، وأنفق ببذخ وسخاء، والنساء يعجبهن ذلك، قد تكون مقوس الظهر وقذرا، وحطاما، ولكنهن يتناسين كل هذا، ولا يرين إلا اليد التي تخرج النقود وتبعثرها بغير حساب.

وهكذا أنفقت في تلك الجلسة ثروة – بارك الله فيك ورد عليك أموالك أضعافاً مضاعفة – وكانت النتيجة، أن ازدادت الفتاة قربا مني، وألصقت ركبتها بعظامي النخرة، ولكني تظاهرت بالبرود وقلة الاكتراث، رغم أنني كنت في الواقع أتلظى، وهذه هي الطريقة للعب بعقول النساء، أن تتظاهر بالإعراض عنهن، بينما أنت تتحرق شوقاً إليهن.. من الخير لك أن تعرف ذلك فقد تفيدك المعرفة إذا وجدت في مثل هذا الموقف.. وانتصف الليل، وشرع الخدم في إطفاء الأنوار وغلق الأبواب، فأخرجت من جيبي حزمة من أوراق النقد ذات الإلف درخمة ودفعت الحساب وأعطيت الخدم منحة سخية، وحينئذ تعلقت الفتاة بساعدي وسألتني وهي ترمقني بنظرة إغراء: "ما اسمك؟"

- الجد.

فقرصتني الفاجرة قرصة آلمتني وهمست قائلة:

- تعال معي.

فضغطت يدها الصغيرة بين يدي وقلت لها:

- أهذا ما تريدينه؟ هلمي إذاً.

وعندما استيقظت في اليوم التالي كان الوقت ظهراً.. وأجلت البصر حولي، فإذا بي في غرفة صغيرة أنيقة، بها مقاعد وثيرة، وزجاجات عطر متعددة الألوان، ومرايا من جميع الأحجام، وملابس أنيقة مُعلقة بالجدران، وحشد من الصور لبحارة وضباط، ونساء عاريات، ووجدت إلى جانبي في الفراش الوثير، صاحبتنا السمراء اللعوب، فأغمضت عيني وقلت لنفسي:

- لقد دخلت الجنة وأنت على قيد الحياة يا زوربا.. هذا مكان جميل ويجب ألا تبرحه.

وأحسب أنني قلت لك ذات مرة يا أستاذي أن لكل إنسان جنته المفضلة، فالجنة بالنسبة إليك خزانة زاخرة بالكتب وعدد لا يحصى من زجاجات الحبر، وبالنسبة إلى البعض براميل من نبيذ وعرق وروم، وبالنسبة للآخرين صناديق مليئة بالنقود.. أما بالنسبة إلي فهذه جنتي: غرفة صغيرة مُعطرة، وملابس ذات ألوان مرحة مُعلقة بالجدران، وفراش كبير وثير، وامرأة إلى جانبي.. إن الاعتراف بالخطيئة هو نصف التوبة، وأعترف لك بأنني لم أبرح الفراش في ذلك اليوم.. إلى أين أذهب؟ لقد كنت مرتاحاً حيث أنا، وأرسلت إلى أحد المطاعم الكبرى في طلب طعام من الكافيار والسمك وعصير الليمون والقطائف.. وفي المساء ارتديت ثيابي، وخرجت متأبطا ذراع صاحبتي في الطريق إلى الكباريه، ولا أطيل عليك الحديث.. إنني مازلت أتبع هذا البرنامج، ولكن لا تنزعج، فإنني لم أنس المُهمة التي أوفدتني فيها، ولسوف أشتري الأسلاك والأدوات الأخرى.. إن تأخير يوم أو أسبوع أو شهر لن يؤثر كثيراً، ومن مصلحتك أن أنتظر حتى يصفو ذهني فلا أخدع في البضائع أو الأسعار، فصبراً وثق بي ولا ينبغي أن تقلق على صحتي؛ فالمغامرات تفيدني، وقد ردتني الأيام الأخيرة إلى شبابي، حتى أتوقع أن تنبت لي أسنان جديدة وفي كل مرة

أنظر إلى المرآة وأعجب كيف لم يسترد شعر رأسي لونه الطبيعي، ويصبح أسود كطلاء الأحذية.

ولعلك تسأل لماذا أكتب إليك كل هذا؟ والواقع أنك لي بمثابة القس الذي يتلقى الاعتراف، وأنا لا أستحي من الاعتراف لك بذنوبي وآثامي.. هل تعرف لماذا؟ لأني عهدتك حتى الآن لا تحفل بما أفعل، سواء أكان خطئاً أم صواباً، وهذا ما يحفزني لأن أقول لك كل شيء، فأصغ إلي، كان أمس عيد أحد القديسين في قرية قريبة من (كانديا) فقالت لي لولا، وهذا اسم صديقتي الصغيرة السمراء:

- هلم بنا يا جدي.. دعنا نشهد حفلات العيد.

- اذهبي أنت أيتها الجدة الصغيرة.

- ولكني أريد الذهاب معك.

- وأنا لا أريد الذهاب، لأني لا أحب القديسين.. اذهبي وحدك.

- حسنا.. لن أذهب إذن.

فنظرت إليها مبهوراً:

- ولماذا لا تذهبين؟

- إذا جئت معي ذهبت وإلا فلا...

- ولكن لماذا؟.. أليست لك كل الحرية؟

- كلا.

- ألا تريدين أن تكوني حرة؟

- كلا ... لا أريد..

وخُيل إلي أنني لم أسمع جيداً وصحت بها:

- ألا تريدين أن تكوني حرة؟

- كلا.. لا أريد أن أكون حرة.

سيدي، إنني أكتب إليك هذا من غرفة (لولا) على ورق (لولا)، وأنا أعتقد أن الآدميين وحدهم هم الذين يريدون الحرية.. ولكن النساء لا يرونها، فترى هل هن آدميات؟ أرجو أن تكتب إليَّ على وجه السرعة.

(أليكسيس زوربا)

ما أن فرغت من تلاوة رسالة زوربا حتى تجاذبتني ثلاثة عوامل، فلم أدر هل أغضب، أم أضحك، أم أعجب بهذا الرجل البدائي الذي حطم غلاف الحياة بعناصره الثلاثة: المنطق والأخلاق والأمانة، ووصل مباشرة إلى اللباب، كان يفتقر إلى جميع الفضائل الصغيرة التي لا غناء عنها، ولم تكن له إلا فضيلة واحدة قلقة خطرة تلح عليه باستمرار وتدفعه دائما إلى آخر الحدود وإلى الهوة، غمغمت أقول:

"بارك الله في زوربا لقد كان يجسد جميع الآراء والخواطر المجردة التي تعتمل في داخلي، فيمنحها هيكلا حيا دافئا، وعندما لا يكون هنا، تضطرب آرائي وخواطري من جديد".

وتناولت ورقة وقلما، وكتبت هذه البرقية التي بعثت بها إليه: "عُد فوراً".

الفصل الثالث عشر

بعد ظهر يوم السبت، وهو اليوم الأول من شهر مارس، كنت جالسًا على صخرة في مواجهة البحر وبيدي كتاب أقرأه عندما سمعت فجأة وقع أقدام على الحصى. فرفعت عيني، ورأيت الغانية العجوز مقبلة تتدحرج على الشاطئ. كانت لاهثة الأنفاس بادية القلق، وسألتني على الفور:

- ألم تصلك رسالة؟

فنهضت لاستقبالها، وأجبيها ضاحكا:

- نعم، وهو يبعث إليك بتحيته ويقول أنه يفكر فيك ليل نهار ولا يطيب له طعام أو شراب وأن الفراق يشق عليه

فصاحت المرأة التعسة وهي تلتقط أنفاسها:

- أهذا كل ما يقوله؟

وشعرت بالأسف لها، وأخرجت الرسالة من جيبي، وتظاهرت بأنني أقرأها، وكلما تعثرت بالكلام، تظاهرت بأن الخط مضطرب ومن الصعب قراءته، وتلوت عليها:

"ذهبت أمس إلى أحد المطاعم الرخيصة لأتناول غذائي وكنت جائعا، ولكني ما كدت أدخل المطعم حتى وقع بصري على فتاة فاتنة كأنها ملكة جمال. ومن عجب أنها تُشبه بوبولينا تماما، وعلى الفور بدأت الدموع تنهمر من عيني، ولم أقو على ابتلاع الطعام فتركته دون أن أتناول منه شيئاً. وبلغ من تأثري أنني قصدت فورا إلى كنيسة القديس ميناس، وهناك أشعلت شمعة، وجثوت على ركبتي وابتهلت إلى

الله قائلاً اللهم ابعث إلي بنبأ عن الملاك الذي أحبه، واعمل على أن تتلاقى أجنحتنا في أقرب وقت"..

وهنا أشرق وجه الغانية وانفجرت ضاحكة، فتوقفت عن الكلام وسألتها لكي اكتسب فسحة من الوقت اخترع فيها مزيدا من الأكاذيب:

- ما الذي يُضحك يا سيدتي؟ كنت أظنك ستبكين تأثراً.

- آه ... لو علمت.

- ماذا؟

- الأجنحة!! لقد اعتاد الوغد في خلوتنا أن يسمي أقدامنا أجنحة، وها هو يقول: اللهم اعمل على أن تتلاقى أجنحتنا في أقرب وقت... ها... ها... ها..

- استمعي إلى ما يلي وسوف تُدهشين.

وعدت إلى القراءة:

"مررت اليوم بحانوت حلاق، كانت تنبعث منه رائحة عطرة؛ فتذكرت بوبولينا على الفور وبكيت.. أواه يا سيدي.. إنني أكاد أجن.. لم أستطع فراقها أكثر من ذلك".

فابتسمت المرأة وظهرت على وجهها دلائل السعادة وقالت:

- ألم يقل شيئاً آخر؟

- وماذا تريدين أكثر من ذلك يا مدام هورتنس.. إن الرسالة كلها هناك.. انظري.. أربع صفحات في ركن كل صفحة منها صورة قلب.

- أهذا كل شيء!

ورأيت في عينيها تلك النظرة التي نراها في عيني حيوان في مأزق فأخذتني الشفقة وقلت:

- إنه يقول شيئا آخر على جانب عظيم من الأهمية ولذلك احتفظت به للنهاية.

- ما هو؟

- يقول أنه عندما يعود، سيجثو على ركبتيه أمامك ويتوسل إليك والدموع في عينيه أن تقبليه زوجا.. إنه يريد أن يجعل منك زوجته الصغيرة، مدام هورتنس زوربا. حتى لا تفترقا بعد ذلك أبداً.

هُنا امتلأت عيناها حقا بالدموع.. دموع الفرح لتحقيق الأمنية التي راودتها طول حياتها، وهي الاستقرار والنوم في فراش شرعي، ولا شيء أكثر من ذلك.

قالت بلهجة سيدة عظيمة تتنازل بالقبول:

- حسنا، قبلت، إنما أرجوك أن تكتب إليه بأنه لا يوجد بالقرية زهور برتقال لثوب الزفاف، ويحسن به أن يشتريها من (كانديا).. قل له كذلك أن يشتري شمعتين كبيرتين، وشريطا أحمر، ولا بأس ببعض الحلوى.. وعليه كذلك أن يشتري ثوب الزفاف وجوارب حريرية؛ وحذاء من الساتان الأبيض.. قل له أن لدينا أغطية للفراش وأنه لا ضرورة لشراء أغطية جديدة.

وهكذا بدأت بإصدار الأوامر، وإعداد قائمة المطلوبات، وجعلت من زوجها صبياً تأمره بأن يشتري هذا وذاك فيطيع، واعتدلت في وقفتها، وبدت عليها هيبة المرأة المتزوجة الكريمة، قالت:

- أريد أن أسألك شيئا مهمًا.

- تكلمي يا مدام هورتنس.. إنني في خدمتك.

- أنا وزوربا نحبك ونحترمك، فإنك رجل كريم ولن تكون معرة لنا، فهل توافق على أن تكون شاهد الزواج؟

- يشرفني أن أكون شاهد الزواج يا مدام هورتنس.

- حسنا، طاب مساؤك، أرجو أن يعجل بالعودة إلينا.

ورأيتها تبتعد، وتختال في مشيتها وتتمايل كفتاة في العشرين من عمرها.. كانت تمشي بمزيد من الثقة، وحذاؤها يترك في الرمال أثرا عميقا، وما كادت تتوارى عن عيني حتى سمعت جلبة شديدة وصراخاً يشق عنان السماء، كما لو كانت هناك جنازة، فتسلقت إحدى الأشجار، ونظرت في اتجاه مصدر الصراخ، ورأيت بعض رجال القرية ونسائها يعدون في الطريق إلى الشاطئ والكلاب تعوي وراءهم، كذلك رأيت ثلاثة رجال يمتطون الجياد ويسبقون أهل القرية وفي أثرهم سحب كثيفة من الغبار.. قلت لنفسي: "لا بد أن حادثاً وقع". وانطلقت أعدو نحو الخليج، وفجأة رأيت مدام هورتنس مقبلة نحوي وهي تلهث، وتبكي وتصيح، وتعثرت وكادت أن تسقط، فأمسكت بها، وسألتها:

- ماذا حدث؟ ولماذا تبكين؟

- إنني خائفة.

- مم؟

- من الموت.

لا بد أنها شمت رائحة الموت بالهواء، وأردت أن أساعدها على السير معي إلى الخليج ولكنها امتنعت وقامت وصاحت:

- كلا... كلا... لا أريد.

وجرت نفسها إلى إحدى أشجار الزيتون، وجلست تحتها وهي ترتجف، قلت:

- اذهبي أنت، وسأنتظرك هنا.

فأسرعت إلى الخليج، وكان الصراخ والنحيب وولولة النادبات يزداد وضوحا كلما قدمت، ورأيت ميميكو يمضي مسرعا بالقرب مني فسألته:

- ماذا حدث يا ميميكو؟

فصاح دون أن يتوقف:

- لقد أغرق نفسه.

- من؟

- بافيل، ابن مافراندوني.

- لماذا؟

- الأرملة.

ولم يزد... ولكن الكلمة دوت في الفضاء، وأومأت ضمناً إلى جسد الأرملة وخطورة فتنته، ووصلت إلى الخليج، ووجدت هناك جميع أهل القرية.

الرجال حاسرو الرؤوس صامتون، والنساء يمزقن شعورهن ويولولن، بينما وقف مافراندوني الشيخ بلا حراك أمام جثة منتفخة مسجاة فوق رمال الشاطئ.. كان الشيخ يستند على عصاه بإحدى يديه، ويمسك بيده الأخرى لحيته البيضاء، وصاح فجأة صوت ثاقب:

- لعنة الله عليك أيتها الأرملة، وسوف تدفعين ثمن هذا.

ووثبت امرأة وقفت بين الرجال وصاحت:

- أليس في القرية رجل يلقيها أرضاً ويذبحها ذبح الشاة؟ تبا لكم من جبناء.

وبصقت على الرجال الذين راحوا ينظرون إليها ولا ينطقون.

وأخيراً أجابها كوندومانوليو صاحب المقهى بقوله:

- لا تحقرينا يا كاترينا.. لا تحقرينا أيتها المعتوهة فلا يزال في القرية رجال وسوف ترين.

ولم أتمالك نفسي فصحت قائلاً:

- عار عليكم جميعاً.. ماذا فعلت تلك المرأة لتسأل عما حدث؟ وما حدث كان مُقدرا.. أفلا تخشون الله؟

ولكن أحداً لم يجب.

وانحنى مانولاكاس، ابن عم الغريق، وحمل الجثة بين ساعديه، وسار في الطريق إلى القرية، وتبعته النساء وهن يصرخن ويخدشن وجوههن ويمزقن شعرهن، بينما تقدم مافراندوني الموكب في صمت.

وأخيراً اختفى الموكب في الغسق وساد الصمت والسكون؛ فنظرت حولي ووجدتني وحيداً، وفكرت ولم أتمالك نفسي من الإعجاب بأولئك الذين جرفتهم دوامة الآلام البشرية من أهل القرية: هورتنس وزوربا والأرملة وبافلي الذي ألقى بنفسه في البحر بشجاعة ليُغرق أحزانه، وكاترينا التي حضت رجال القرية على ذبح الأرملة كما يذبح الشاة، ومافراندوني الذي رفض بإباء أن يبكي، أو حتى أن يتحدث أمام الآخرين.. أنا الوحيد الذي لم أغضب ولم يغل الدم في عروقي، بل ولم أحب قط بقوة ولم أكره بقوة.. أنا الوحيد الذي أردت تصفية الأمر بسلام وبطريقة تنطوي على الجبن، فألقيت التبعة كلها على القدر.. وحانت مني التفاتة، فرأيت أناجنوستي لا يزال هناك جالسا على صخرة بجوار الشاطئ، ولم أكن قد فطنت إليه بعد رحيل الموكب.. كان يسند ذقنه على عصاه، وينظر إلى البحر، فناديته ولم يسمعني فذهبت إليه، ورآني، وهز رأيه وغمغم قائلاً:

- وا أسفاه على الحياة الفتية التي أهدرت.. مسكين ذلك الشاب، لم يحتمل أحزانه فألقى بنفسه في البحر وغرق، وهكذا نجا.

- نجا؟ ماذا تعني؟

- نعم يا بني.. إنه نجا.. ماذا كان بوسعه أن يفعل بحياته لو أنه تزوج الأرملة، لحدثت خلافات ومعارك، وربما حدث عدوان على العرض، وتلويث للشرف، إن الأرملة امرأة مثيرة وفاجرة لا تكاد ترى رجلا حتى تشتهيه. وإذا لم يتزوجها قضى حياته حزيناً مُعذباً فموقفه كما ترى كان كموقف رجل يقف بين فجوتين أحداهما أمامه، والثانية وراءه.

- لا تتكلم هكذا أيها العم أناجنوستي، إنك توقع اليأس في قلب من يسمعك.

- لا تجزع يا ولدي، فليس هناك من يسمعني سواك، وحتى لو سمعوني، هل تظنهم يُصدقونني؟.. أصغ إليَّ. هل في هذه القرية من هو أسعد مني؟ إنني أملك حقلاً كبيراً وعدداً ضخماً من أشجار الزيتون والعنب، وأملك بيتا ذا طابقين، ولي زوجة كريمة وديعة لم ترفع عينيها في وجهي قط، وقد رزقت منها بأبناء عديدين، أصبحوا بدورهم آباء كراما.. وليس هناك ما أشكو منه، فماذا أريد أكثر من ذلك! ومع هذا فإنني لو بدأت حياتي من جديد فلن أتردد في وضع حجر حول عنقي وإلقاء نفسي في البحر كما فعل بافلي.. إن الحياة شاقة يا ولدي.. لعنة الله عليها.

- ولكن ماذا ينقصك أيها العم أناجنوستي؟ ومم تشكو؟

- لا ينقصني شيء، ولكن اذهب، وسل قلوب الرجال وصمت لحظة

ونظر إلى البحر المظلم وصاح:

- إنك أحسنت صنعا يا بافلي.. دع النساء يصرخن ويولولن؛ فهن نساء بلا عقل.. لقد نجوت الآن يا بافلي وأبوك يعلم ذلك، ولهذا لم ينطق بكلمة.

ونظر إلى السماء، ثم إلى الجبل الذي لفه الظلام وقال:

- لقد هبط الليل ويحسن بي أن أعود.

وصمت فجأة، وبدا عليه كأنه ندم على ما قال وأنه قد أفشى سراً عظيماً ويريد الآن أن يتراجع؛ فألقى بيده على كتفي وقال:

- إنك لا تزال شابا فلا تقم وزنا لما يقوله العجوز، ولو عمل الناس بكلام العجائز لخربت الدنيا. إذا قابلتك أرملة في الطريق فلا تتركها.. تزوج، وأنجب أطفالاً. ولا تتردد.. إنما خُلقت المتاعب للشباب...

ووصلت للكوخ وأوقدت ناراً وأعددت قدحاً من الشاي. كُنت مُتعباً وجائعاً، فأكلت بنهم، وأرضيت غرائزي الحيوانية.

وفجأة، رأيت ميميكو يطل برأسه من النافذة ويبتسم لي في مكر، سألته:

- ماذا جاء بك يا ميمكو؟

- لقد أحضرت لك شيئا من الأرملة.. سلة مليئة بالبرتقال، قالت إنها آخر ما تبقى من الثمار في حديقتها.

فهتفت وأنا مبهور:

- تقول من الأرملة؟.. ولماذا بعثت بها إليَّ؟

- من أجل الكلمة الطيبة التي ذكرتها عنها للقرويين مساء اليوم، هكذا قالت.

- أية كلمة طيبة؟

- وكيف أعلم؟ إنني أنقل إليك عباراتها، ولا شيء غير ذلك.

وأفرغ السلة في الفراش، وامتلأت الغرفة برائحة البرتقال.

- قل لها إنني أشكرها من أجل هذه الهدية، وإنني أنصح لها بأن تكون على حذر، وألا تذهب إلى القرية مهما كانت الظروف.. هل سمعت؟ يجب عليها أن تلزم بيتها بعض الوقت ريثما تهدأ النفوس وينسى الناس هذا الحادث المؤلم.. هل فهمتني يا ميميكو؟

- هل هذا كل ما تريد؟

- نعم.. وفي استطاعتك أن تذهب الآن.

فغمز ميميكو بعينه وسأل مرة أخرى:

- هل هذا كل ما تريد؟

- اذهب عني.

فانصرف وتناولت برتقالة وأزلت قشرتها، كانت حلوة كالعسل، وتمددت في فراشي واستغرقت في النوم، ورأيت فيما يرى النائم أنني أتجول في حديقة برتقال، وأنني فلاح في العشرين من عمري، وأنني أمشي بين أشجار البرتقال وأصفر بفمي وأنتظر.. فمن كُنت انتظر؟ لا أعلم.

ولكن قلبي كان يفيض بالفرح؛ ففتلت شاربي، وقضيت الليل كله أنصت إلى البحر وهو يتنهد كما تتنهد امرأة وراء حديقة البرتقال.

الفصل الرابع عشر

عدت في مساء أحد الأيام من جولة بالجبل، وما كدت أدنو من الكوخ حتى رأيت النور ينبعث من نافذته فأدركت على الفور، والسعادة تملأ جوانحي أن زوربا قد عاد أخيراً، وهممت بأن أعدو إلى الكوخ ولكني أمسكت وقلت لنفسي: يجب أن أخفي سروري، وأتظاهر بالضيق، وأتحدث إليه في شده وقسوة، فقد أرسلته في مهمة عاجلة فبدد نقودي، وعاش مع إحدى الساقطات، وها هو يعود بعد اثني عشر يوما.. يجب أن أتظاهر بالغضب.. يجب.. وحاولت جاهداً أن أغضب، وقطبت حاجبي، وأطبقت يدي، وحاولت أن أفعل كل ما يفعله الرجل الغاضب، ولكني لم أوفق، وكلما دنوت من الكوخ، تضاعف شعوري بالسعادة، وتسللت بالقرب من النافذة، وأطللت منها فرأيت زوربا جاثيا على ركبتيه أمام الموقد، وهو يعد القهوة، وذاب قلبي بين ضلوعي وصحت: "زوربا".

وبأسرع من لمح البصر، كان زوربا واقفا حافي القدمين أمام الكوخ وعيناه تفتشان في الظلام، وما أن تبين وجهي حتى بسط ساعديه ليعانقني، ولكنه عاد فأرخاهما وقال في تردد:

- يسرني أن أراك.

فحاولت أن أرفع صوتي في غضب وقلت له ساخرا:

- يسرني أن أرى أنك تفضلت بالعودة.. لا تدن مني إن رائحة الصابون المعطر تفوح منك.

- آه، ليتك تعلم كيف حككت جسدي بالرمل كي أتخلص من الرائحة اللعينة ولكنها ستزول مع الوقت عاجلاً أو آجلاً، وهذه ليست أولى تجاربي مع الصابون المعطر.

فقلت له وأنا أقهقه ضاحكاً:

- هلم بنا ندخل.

ودخلنا الكوخ. وكانت تنبعث منه روائح العطر والمساحيق والنساء، فهتفت وأنا أشير لصندوق ملئ بحقائب السيدات والجوارب وقطع الصابون وزجاجات العطر.

- ما كل هذا بحق السماء!!

- هدايا..

- هدايا؟

- نعم، هدايا لبوبولينا، فأرجو ألا تغضب.. إن عيد الفصح يقترب، وبوبولينا امرأة كما تعلم.

فقلت محاولا كتمان الضحك:

- ولكنك لم تحضر لها أهم شيء..

- ماذا؟

- ماذا.. ماذا تعني؟ أنا لا أفهمك..

وهنا قصصت عليه كيف خدعت الغانية المدلهة، فحك زوربا رأسه بشدة وقال:

- ما كان يجب أن تفعل ذلك يا سيدي.. أنت تعلم أن هذا النوع من الدعابة... إن النساء ضعيفات ورقيقات كما قلت لك مرارا.. إنهن أشبه بأواني الخزف، ويجب أن يعاملن بعناية ورفق..

فشعرت بالخجل، وكنت قد أسفت على ما فعلت ولكن بعد فوات الأوان. قلت لأغير مجرى الحديث:

- والسلك الهوائي؟ والأدوات؟

- لقد أحضرت كل شيء فلا تنزعج.

قال ذلك وملأ قدحي بالقهوة وقدم لي بعض قطع الحلوى مما أحضره معه، وقال:

- لا تظن أنني نسيتك، فقد جئتك بصندوق كبير مليء بالحلوى.. إنني لم أنس أحدا، حتى الببغاء أحضرت لها حقيبة مليئة بالفول السوداني.

وكان يحتسي القهوة ويدخن ويرقبني بعينين كعيني الثعبان

سألته:

- هل حللت المشكلة التي حملتك أيها الوغد العجوز؟

- أية مشكلة يا سيدي؟

- مشكلة ما إذا كانت المرأة مخلوقا آدميا أم لا.

فأجاب وهو يلوح بيده:

- آه.. طبعا.. إن المرأة مخلوق آدمي مثلنا، ما في ذلك شك.. كل ما هنالك أنها أسوأ منا.. إنها ترى نقودك فتفقد صوابها، وتتنازل عن حريتها، ولكن ما إن تفرغ نقودك.. فإن الباقي معروف ولا ضرورة للتكرار.

ثُم نهض واقفاً وألقى بسيجارة من نافذة الكوخ وقال:

- دعنا نتحدث حديثا جاداً، لقد أحضرنا السلك والأدوات، وآن لنا أن نتعاقد مع الدير بشأن الغابة.. إنما يجب أن يتم التعاقد قبل إقامة السلك الهوائي حتى لا يغالوا في مطالبهم.. هل فهمتني؟ يجب أن نبدأ العمل، فالوقت يمر بسرعة، وبحسبنا ما أضعنا من مال في رحلة (كانديا) إن الشيطان.

وصمت، وشعرت بالأسف له، وكان أشبه بطفل ارتكب حماقة ولم يعرف كيف يعالج الموقف فراح يرتجف، وقلت لنفسي: "عار عليك أن تدع رجلا كهذا يرتجف خوفا.. إنك لن تجد ما حييت زوربا آخر".

صحت به:

- دعنا من الشيطان يا زوربا فلا شأن لنا به.. إن ما كان قد كان، فانس ما حدث.. وتناول السانتوري.

فوثب نحو الجدار ليتناول الآلة الموسيقية، ولكنه ما كاد يضع يده عليها، حتى سمعت وقع خطى ثقيلة بالخارج، فجمد زوربا في مكانه، ورفع حاجبيه متسائلاً وقال بصوت خافت:

- يا للشيطان، لقد اشتمت الكلبة العجوز رائحة زوربا في الهواء فجاءت تطلبه.

فقلت وأنا أنهض واقفا:

- لا أريد أن يكون لي شأن بهذا الموضوع.. سأقضي بعض الوقت على الشاطئ حتى تحسم الأمر معها، ولا تنس أنك وعدتها بالزواج، حذار أن تكذبني يا زوربا.

فتنهد وقال:

- ألا تكفي الزيجات السابقة حتى أتزوج مرة أخرى؟

واقتربت رائحة الصابون المعطر فقلت:

- تشجع يا زوربا.

وتسللت إلى الخارج.

الفصل الخامس عشر

كان أول إنسان رأيناه عند عودتنا من الدير هو بوبولينا، وكان زوربا قد استيقظ مبكرا في الصباح فأصدر تعليماته إلى عمال المنجم، ثم أحضر بغلين امتطيناهما، وصعدنا إلى الجبل حيث اجتمعنا برهبان التل، ونجح زوربا في إقناعهم بمنحنا حق استغلال الغابة بأجر أقل كثيرا مما سبق الاتفاق عليه.

قال لي زوربا ونحن في طريق العودة:

- أظن أنني قد عوضتك بهذا الاتفاق عما بذرت من أموالك في (كانديا).

- ألم نتفق على نسيان هذا الموضوع؟.

- لقد أتاحت لي هذه الرحلة إلى قمة الجبل تقدير الانحدار الصحيح للخط الهوائي وسوف ندعو الرهبان لإقامة حفل ديني عظيم لمناسبة إقامة أول عمود للسقالات التي تتحرك عليها كل الخشب من القمة إلى شاطئ الخليج.

فعندما عدنا من رحلتنا الموفقة، رأينا مدام هورتنس جالسة فوق صخرة أمام الكوخ ولكني ما كدت أضيء المصباح الزيتي وانظر إليها حتى هالني امتقاع وجهها فلم أتمالك نفسي من أن اهتف:

- ماذا بك يا مدام هورتنس؟ هل أنت مريضة؟

ويبدو أن فكرة الزواج قد غيرت مجرى حياتها، فقررت أن تنسى الماضي، وأن تقلع عن زينتها الصارخة التي ألفتها منذ عهد البكواتوالباشاوات، وهكذا ظهرت على حقيقتها، مخلوقة مسكينة لا أمنية لها إلا الزواج والاستقرار. ولم ينطق زوربا بكلمة، وراح يتشاغل بإشعال النار وإعداد القهوة؛ فصاحت المرأة فجأة بصوت أجش:

- أنت رجل قاسي القلب يا زوربا.

فرفع زوربا رأسه ونظر إليها، وأخذته الشفقة بها. كانت دمعة واحدة من عين امرأة كافية أن تُغرقه.

قالت المرأة:

- لماذا كل هذا التسويف والمماطلة؟ لماذا لا تقطع برأي في أمر الزواج.. إنني لم أعد أجسر على الظهور في القرية.. هذه فضيحة لي وسأقتل نفسي.

وكنت أشهد المأساة المُضحكة ولا أجد ما أقوله.

واستطردت المرأة قائلة:

- لماذا لم تحضر زهور البرتقال؟

وأحس زوربا بيدها ترتجف فوق ركبته، ولكنه لزم الصمت، وراح يحرك السكر في إناء القهوة.

وقالت المرأة مرة أخرى بصوت يتهدج:

- لماذا لم تحضر زهور البرتقال؟

فأجاب باقتضاب:

- لأنني لم أجد منها شيئا مناسبا في كانديا.

ثم استطرد بعد قليل:

- لقد طلبتها من أثينا، وكذلك طلبت الشموع والحلوى.

ثم لمعت عيناه وحلق في سماء الخيال... قال:

- إن زواجنا سوق يثير ضجة، صبراً حتى ترى ثوب الزفاف الذي أمرت بإعداده لك، طالت إقامتي في كانديا لهذا السبب أيتها الحبيبة، ذلك لأنني استدعيت

اثنين من كبار مصممي الأزياء في أثينا وقلت لهما: إن المرأة التي سأتزوجها لا مثيل لها في الشرق أو الغرب، لقد كانت الملكة غير المتوجة في أربع دول كبرى، وقد ماتت هذه الدول وهي الآن أرملة، وستصبح زوجة لي، وأنا أريد أن يعد لها ثوب زفاف لا مثيل له.. ثوب موشى بالذهب واللآلئ؛ فقالا: ولكن مثل هذا الثوب سوف يُبهر أبصار المدعوين فلا يرون جمال العروس. فقلت لهما: "وما أهمية ذلك طالما العروس راضية؟"

فارتسمت على شفتي المرأة ابتسامة عريضة وقالت له:

- أريد أن أهمس في أذنك بكلمة..

فغمزني زوربا بإحدى عينيه، وأحنى رأسه نحوها فهمست في أذنه قائلة:

- لقد أحضرت لك شيئاً.

وأخرجت من صدرها منديلا قد عقد أحد أطرافه وقدمته له.

وتناول زوربا المنديل، ووضعه على ركبته ثم أشاح بوجهه وأرسل بصره إلى البحر. قالت المرأة:

- ألا تحل العقدة يا زوربا؟

- دعيني أحتسي قهوتي وأدخن سيجارتي أولاً، ولا ضرورة لأن أحل العقدة الآن، فأنا أعرف ما فيها.

- أرجوك أن تحلها.

- يجب أن أدخن سيجارتي أولاً كما قلت لك.

فنظر إلي مُعاتباً كمن يريد أن يقول:

- انظر ماذا صنعت بي!!

وراح يدخن في هدوء ويخرج الدخان من أنفه، وينظر إلى البحر. قال بعد لحظة:

- سنشهد عاصفة غداً، لقد تغير الجو، سوف تتفتح أكمام الزهر وتنمو صدور الفتيات.. ذلك هو الربيع.

فقالت له المرأة متوسلة:

- زوربا.. زوربا.

فقذف بسيجارته في غيظ، وحل عقدة المنديل ونظر إلى ما كان فيها ثم سأل في اشمئزاز:

- ما هذا يا مدام بوبولينا؟

فقالت المرأة وهي ترتجف:

- خاتمان أيها الحبيب، وها هو الشاهد، بارك الله فيه، والجو رائع، والله يرقبنا، فدعنا نعقد خطوبتنا.

فراح زوربا ينقل البصر بينها وبيني، وبين الخاتمين. وخيل إلي أن الشياطين تعترك في أعماقه.. تُرى أي قرار سيتخذ؟

ونظرت إليه المرأة في ذعر، ولكنه هز رأسه فجأة ونهض واقفاً وهو يقول:

- هلمي بنا إلى الخارج، لتشهد النجوم خطوبتنا.

وفي الطريق إلى الخارج، اقترب مني وهمس في أذني قائلاً:

- بحق السماء.. لا تتركنا وحدنا.

الفصل السادس عشر

ارتدى زوربا ثيابه وخرج إلى الشاطئ ليرقب مقدم مدام هورتنس. كنا قد أعددنا لها – على سبيل الجد والفكاهة – مأدبة عشاء في الهواء الطلق لمناسبة عيد الفصح، وأقمنا من غصون الأشجار قوس نصر لتمر تحته، وزينا القوس بأعلام الدول الأربع الكبرى، إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وروسيا. ولما لم يكن لدينا مدافع كمدافع البوارج، فقد استعرنا بندقتين من بعض القرويين، واتفقنا على أن نستقبلها، عند قدومها بوابل من الطلقات وكان الهدف من هذا كله أن نجعلها تعيش على هذا الشاطئ الموحش المهجور لمحة من مجدها القديم. أما الطعام، فكان يتألف من حمل مشوي، وعدد لا يحصى من البيض الملون.

قال زوربا متبرماً:

- لماذا تأخرت هذه البقرة العجوز؟.

فأجبته:

- إنها ستأتي حتما. دعنا ندخن لفافة تبغ ريثما تحضر.

فقال وهو يلقي على الطريق إلى القرية نظرة أخيرة:

- أرى صبياً قادما نحونا.

قال ذلك وخف لمقابلة الصبي في منتصف الطريق، ونهض الصبي على أصابع قدميه وهمس في أذنه كلاماً فصاح زوربا في غضب:

- مريضة!! تقول أنها مريضة؟ إذن فاغرب عن وجهي قبل أن أضربك.

والتفت إلي وقال:

- سأذهب إلى القرية لأرى ماذا أصاب البقرة العجوز. لن أغيب أكثر من بضع دقائق.. أعطني بيضتين لأقدمهما إليها.

ووضع البيضتين في جيبه، وانطلق في الطريق إلى القرية، وكان النسيم عليلاً، والبحر مُضطربا؛ فاستلقيت على الرمال انتظاراً لعودة زوربا. وبعد ساعة، رأيته مُقبلاً وهو يفتل شاربيه، وعلى وجهه دلائل الرضى، قال:

- لقد أصيبت المسكينة ببرد قد يلزمها الفراش بضعة أيام، قالت أنها كانت تتردد على الكنيسة طيلة الأسبوع الأخير لتصلي من أجلي، ويبدو أنها أصيبت بالبرد خلال ذلك، بيد أنني دلكت جسدها جيداً بالكيروسين وجرعتها كأساً من الروم.

وجلسنا لتناول الطعام، ورفع زوربا قدحه قائلاً:

- لنشرب نخب صحتها، ولنسأل الشيطان ألا يقبض روحها قبل فترة طويلة أخرى.

وأكلنا وشربنا في صمت، وحمل إلينا النسيم صوت قرع الطبول فصاح زوربا:

- إنهم يرقصون في القرية فهلم بنا نرقص معهم..
- ليست لي رغبة في الرقص.. اذهب أنت وارقص نيابة عني.
- ليت لي شبابك يا صديقي.. إذن لألقيت بنفسي رأسا على عقب في كل شيء، في الخمر والعمل والحب.

وتناول عصاه وقبعته ونظر إليَّ مشفقاً وتحركت شفتاه كما لو كان يُريد أن يضيف شيئا إلى ما قاله، ولكنه لم يتكلم، وسار مرفوع الرأس في الطريق إلى القرية. شيعته ببصري حتى توارى، وما كدت أجد نفسي وحيداً حتى نهضت واقفاً.

- لماذا؟

- ولكي أذهب إلى أين؟

- لا أعلم...

إن عقلي لم يتخذ قراراً، وقد تحرك جسدي تلقائيا، دون أن يستطلع رأيي، وسرت في الطريق إلى القرية بخطى سريعة حازمة، وتوقفت مرة أو مرتين لأملأ رئتي من نسيم الربيع. ومررت بموجة من عبير زهور الليمون والبرتقال ثم وجدتني أتوقف فجأة، كما لو كنت قد بلغت المكان الذي أقصده، ونظرت حولي، فإذا أنا واقف أمام حديقة الأرملة.

وخُيل إلي أنني أسمع صوتاً نسائيا خافتاً يترنم، فنظرت من فوق سور الحديقة، ورأيت تحت إحدى أشجار البرتقال امرأة ذات صدر كبير بارز تقطع الأغصان وتُغني بصوت خافت، واستطعت أن أرى في الغسق استدارة نهديها العاريين المطلين من ثوبها الأسود.

قلت لنفسي: "إنها حيوان مفترس، وهي تعلم ذلك جيدا، ولا ترى في الرجال إلا مخلوقات تافهة مغرورة لا حول لها ولا قوة.. ترى هل أحست الأرملة بنظراتي؟ ذلك أنها كفت فجأة عن الغناء وأجالت البصر حولها، والتقت عيوننا، وشعرت بانهيار، كما لو كنت قد رأيت نمرة مفترسة بين الأشجار، وأرخت المرأة منديلها على صدرها، وأكفهر وجهها وصاحت بصوت مختنق: "من هنا؟"

وكدت ألوذ بالفرار، ولكني تذكرت كل ما قاله لي زوربا وكل ما عيرني به وأجبت:

- أنا.. دعيني أدخل.

وما كدت أنطق بهذه الكلمات حتى تملكني الذُعر وهممت مرة أخرى بالفرار، ولكني تماسكت رغم شعوري بالحرج والخجل.

- من تكون؟

أخذت خطوة إلى الأمام في حذر، وحملقت في الظلام، ثم خطت خطوة ثانية، وفجأة أشرق وجهها، وبللت شفتيها بلسانها وقالت بصوت رقيق:

- صاحب المنجم.

وتقدمت في حذر الُمتحفز للوثوب وسألت مرة أخرى:

- أنت صاحب المنجم؟

- نعم.

- تعال.

كان الوقت فجراً، وقد جلس زوربا على الشاطئ أمام الكوخ وراح يُدخن وينظر إلى البحر. كان ينتظرني، وما أن رآني حتى صعدني بعينيه وأخذ نفساً طويلا من أنفه وانبسطت أسارير وجهه.

لقد شم رائحة الأرملة؛ نهض واقفا ببطء، وبسط ساعديه وهو يقول:

- دعني أباركك.

وآويت إلى فراشي وأغمضت عيني، وسمعت حركة الأمواج المنتظمة في الخارِج، وخيل لي أنني أعلو وأهبط معها، إلى أن غلبني النعاس فنمت نوماً عميقاً هادئاً.

واستيقظت حول الظهر وأنا أشعر بالراحة والرضى، كالحيوان حين يتمدد في الشمس بعد أن يكون قد طارد فريسته والتهمها. وأخذت أستعرض أحداث الليلة الماضية، وأحاول أن أعيشها في الخيال مرة ثانية، حين أحسست بجسم يحجب الشمس عني، ففتحت عيني، ورأيت زوربا واقفا بالباب ينظر إلي ويبتسم. قال في رفق، وبحنان الأم على ولدها:

- لا تنهض، فاليوم يوم عطلة وفي استطاعتك أن تنام كما تشتهي.

فاعتدلت جالساً في الفراش وأجبت:

- لقد نمت بما فيه الكفاية.

- حسناً، سأعد لك بيضة يرد عليك بعض القوة.

فلم أجب وأسرعت إلى البحر، وألقيت بنفسي بين أمواجه، ثم جلست على الشاطئ لأجف تحت الشمس، كان عطر زهر البرتقال الذي تضمخ به نساء كريت شعرهن لا يزال عالقاً بأناملي، وكانت الأرملة قد جمعت كمية من هذا الزهر لتحمله إلى الكنيسة في مساء اليوم عندما يكون القرويون في شغل بالرقص في الميدان، ولحق بي زوربا على الشاطئ وحمل إلي البيضة وبعض الخبز والبرتقال، وكان يشعر بالسعادة وهو يرعاني بحدب الأم على وحيدها العائد من الحرب.. قال وهو ينظر إليَّ بحنان:

- سأذهب الآن لإقامة بعض أبراج السلك الهوائي.

فتناولت طعامي تحت الشمس وشعرت بسعادة لا عهد لي بمثلها، ثم عدت إلى الكوخ، حيث حزمت كتابي عن (بوذا)، وكنت قد فرغت من كتابته. وفجأة، دخلت الكوخ فتاة صغيرة عارية القدمين ترتدي ثوبا أصفر وتحمل في يدها بيضة حمراء. ونظرت إلي الفتاة في هلع، ولكني ابتسمت لها مشجعا وسألتها:

- هل تريدين شيئاً؟

فأجابت وهي تلهث:

- لقد أرسلتني السيدة لأطلب إليك أن تذهب إليها.. هل أنت الشخص الذي يسمونه زوربا؟

- حسنا، سأذهب إليها.

ووضعت في يدها بيضة أخرى، فأخذتها وانطلقت تعدو. وخرجت على الأثر، وقصدت إلى القرية، وكانت الضوضاء والصخب يزدادان وضوحاً كلما اقتربت، فاختلطت نغمات القيثارة بقرع الطبول ودوي الرصاص وصيحات المرح، ولما وصلت إلى الميدان رأيت فتيان القرية وفتياتها قد اجتمعوا تحت أشجار الحور وأخذوا يرقصون الرقصات الشعبية، بينما جلس الشيوخ على المقاعد الخشبية المحيطة بالأشجار، وأسندوا ذقونهم إلى مقابض عصيهم. ووقفت عجائز النساء وراءهم وراح الجميع يرقبون الراقصين والراقصات

ووقف فانوريو، عازف القيثارة البارع، وسط حلقة الرقص، وخلف أذنه وردة حمراء، وراح يُحرك المرقص ويشجي الراقصين بما يرسل من نغمات قيثارته، وعندما مررت بحلقة الرقص، تحول إلي بعض الشباب وهتفوا:

- ألا تشترك معنا في الرقص.

ولكني ابتسمت لهم، ومضيت في طريقي إلى بيت مدام هورتنس، ووجدت المرأة ممدة في فراشها الكبير، وهو آخر قطعة من الأثاث الثمين استطاعت الاحتفاظ بها على مر السنين، وكانت تسعل بشدة، وقد احمرت وجنتاها من تأثير الحمى، وما إن وقع بصرها عليَّ، حتى جعلت تئن وتتوجع. وقالت:

- زوربا! أين زوربا؟

- إنه أصيب بوعكة منذ رآك طريحة الفراش، إن صورتك أمام عينيه دائما

وهو ينظر إليها ولا يكف عن التأوه. فأغمضت الغانية المسكينة عينيها في سعادة وغمغمت قائلة:

- زدني حديثا عنه.

- لقد أرسلني إليك لأسألك عما إذا كنت بحاجة إلى شيء، ولكي أقول لك أنه سيأتي لزيارتك هذا المساء رغم توعكه، ويبدو أنه لم يعد يطيق فراقك.

- تكلم.. تكلم.. أرجوك.

- وقد تسلم برقية من أثينا تقول إن ثوب الزفاف قد تم إعداده، وكثير من زهور البرتقال، وقد أرسلت جميعاً بطريق البحر، وستصل قريبا، ومعها الشموع البيضاء الكبيرة والشرائط الحريرية الحمراء..

- تكلم.. امض في حديثك.

وقهرتها الحمى، فاضطربت أنفاسها، وراحت تهذي، وكانت رائحة النشادر والعرق وماء الكولونيا تنبعث من الغرفة مختلطة برائحة مخلفات الدجاج والأرانب في فناء الفندق، فنهضت وتسللت إلى الخارج.. والتقيت عند خروجي بميميكو، وكان يرتدي قميصا جديدا وحذاء ويضع خلف أذنه فقلت له:

- ميميكو.. أسرع إلى قرية كالو واستدع طبيباً.

وقبل أن أكمل عبارتي، كان الفتى قد خلع حذاءه ووضعه تحت إبطه حتى لا يتلف في الطريق.. قلت له:

- ابحث عن الطبيب وأبلغه تحيتي وقل له أن يمتطي فرسه ويحضر فورا.. قل له إن السيدة مريضة بالحمى وأن حياتها في خطر.. لا تنس أن تقول له ذلك والآن، اذهب.

- فوراً.

وبصق في كفيه، وصفق بهما، ولكنه لم يتحرك من مكانه فصحت به:

- اذهب.

ولكنه لزم مكانه، وغمز بعينه وقال وعلى شفتيه ابتسامة ماكرة:

- سيدي.. لقد أهداك بعضهم زجاجة من عطر البرتقال فحملتها إلى كوخك.

فتريث لحظة منتظراً أن أسأله عمن أرسل الهدية ولكني لم أفعل فقال:

- ألا تريد أن تعرف من أرسلها؟

- قالت السيدة إنها أرسلتها إليك لتجعل رائحة شعرك طيبة.

- اذهب، وأسرع، واقفل فمك.

فضحك وبصق في يده مرة أخرى، وأطلق ساقيه للريح.

الفصل السابع عشر

عندما رحلت إلى ميدان القرية، كانت رقصة عيد الفصح التقليدية تحت أشجار البلوط في عنفوانها، ويتزعمها شاب وسيم طويل القامة أسمر البشرة لم تصل الموسى قط إلى الشعر الذي نبت في وجهه.. لم يكن يرقص وإنما كان يطير في الهواء ويرنو بنظراته إلى بعض الفتيات وتتألق عيناه السوداوان تحت الشمس.. وكنت قد كلفت إحدى نساء القرية برعاية مدام هورتنس والعناية بها، وجئت خصيصا لمشاهدة رقصات كريت التقليدية؛ فجلست على المقعد الخشبي بجوار العم أناجنوستي وسألته:

- من هذا الشاب الذي يتزعم الرقص؟

فقال الرجل بإعجاب:

- إنه كالملاك.. اسمه سيفاكاس وهو راعي غنم يقضي العام كله في الجبل ولا يأتي إلا في عيد الفصح ليرى الناس ويرقص.

وتنهد واستطرد قائلاً:

- لو كان لي شبابه لفتحت القسطنطينية بحد السيف.

وصاح الشاب وهو يدور حول نفسه كالدوامة ويحلق في الهواء كالطير:

- اعزف يا فانوريو، اعزف حتى يموت ملاك الموت نفسه.

منذ آلاف السنين، والفتيان والفتيات يرقصون في الربيع تحت أشجار الحور والبلوط والسنديان، وسوف يرقصون عدة آلاف أخرى من السنين، بوجوه تعبير عن الرغبة المكبوتة.. وتتغير الوجوه، وتنهار، وتعود إلى الأرض، ولكن وجوهاً أخرى تظهر وتحل محلها.. راقص واحد فقط لا يترك الحلبة.

إن له ألف وجه، وألف قناع، وهو دائماً في العشرين من عمره، خالد لا يموت أبداً.. ورفع الشاب الأسمر يده إلى وجهه ليفتل شاربه، ولكن لم يجد له شاربا، صاح مرة أخرى:

- اعزف يا فانوريو.. اعزف.

ولعبت أصابع فانوريو على الأوتار واستجابت القيثارة للمساته، ووثب الشاب وثبة قوية، وصفق بقدميه ثلاث مرات في الهواء؛ فصاح الفتيان:

- برافوسيفاكاس.

وأسبلت الفتيات أهدابهن في حياء ولكن الشاب لم ينظر إلى واحدة منهن.. كان يرقص وعيناه تنظران إلى الأرض، وتوقف الرقص فجأة، عندما اندفع أندروليو إلى الميدان وهو يصيح:

- الأرملة.. الأرملة.

وكان مانولاكاس، شرطي القرية، وابن عم الشاب الذي انتحر، أول من خرج من الحلبة ليسرع إلى أندروليو، وأمسك الراقصون عن الرقص، وصعد الدم إلى الرؤوس، وترك الشيوخ مقاعدهم، ووضع فانوريو قيثارته في حجره، وصاحت أصوات يتميز أصحابها غيظاً وغضباً:

- أين هي يا أندروليو.. أين هي؟

- في الكنيسة.. لقد دخلت إليها في التو واللحظة. وكانت تحمل حزمة من زهر الليمون والبرتقال.

فصاح مانولاكاس:

- هلموا بنا.

وتقدم الصفوف، واندفع الجميع نحو الكنيسة كالسيل الجارف، وفي هذه اللحظة ظهرت الأرملة على عتبة الكنيسة وعلى رأسها منديل أسود، ورسمت علامة الصليب على صدرها، وعلى الأثر، ارتفعت أصوات تصيح:

- التعسة الفاجرة.. القاتلة. كيف وجدت الجرأة على الحضور، عليكم بها.. لقد جلبت العار على القرية.

وتبع بعضهم مانولاكاس الذي كان يتقدم الجميع نحو الكنيسة، بينما قذفها آخرون بالحجارة من النوافذ والأسطح. وأصاب حجر كتفها فصرخت، وغطت وجهها بيديها، مانولاكاس قد استل سكينه.

وتراجعت الأرملة إلى الوراء وهي تصرخ في هلع، وانحنت إلى الأمام لتحمي وجهها، ثم دارت على عقبيها وأسرعت إلى الكنيسة لتحتمي بها ولكن مافراندوني الشيخ كان واقفاً كالطود على عتبة الكنيسة وقد بسط يديه يميناً ويساراً ليسد الباب في وجهها.. ووثبت الأرملة إلى اليسار، وتعلقت بشجرة السرو الضخمة، القائمة أمام الكنيسة، ومرق حجر في الهواء وأصاب رأسها ومزق منديلها، فانسدل شعرها على كتفيها، وصرخت الأرملة وهي تتعلق بالشجرة:

- أناشدكم باسم المسيح.. باسم المسيح.

وكانت بنات القرية قد اصطففن في الميدان ورحن ينشبن أسنانهن في أطراف مناديلهن البيضاء، بينما صاحت العجائز من فوق جدران البيوت:

- اقتلوها... اقتلوها..

وتقدم شابان عليها، فتمزق ثوبها وبرز صدرها أبيض كالرخام، وبدأ الدم ينزف من رأسها ويسيل على وجهها وعنقها صاحت وهي تلهث:

- بحق المسيح.. بحق المسيح.

وأثار منظر الدماء والصدر الأبيض الفاتن شباب القرية، فاستل بعضهم سكاكينهم من أحزمتهم، ولكن مافراندوني صاح بهم:

- قفوا.. إنها لي.

وكان لا يزال واقفاً بباب الكنيسة، وقد رفع يده فوق رأسه، فتوقف الشبان على الفور.. واستطرد مافراندوني قائلاً بصوت عميق:

- مانولاكاس، إن دم ابن عمك يناديك، فدعه ينام في سلام.

وكنت قد تسلقت أحد الجدران لأشهد ما يحدث، فوثبت من مكاني، وأسرعت إلى الكنيسة وارتطمت قدماي بحجر فسقطت على الأرض.

وأفقت في هذه اللحظة، إذ كان سيفاكاس يمر بالقرب مني، فأمسك بياقتي كما يمسك الطفل القطة من عنقها وأنهضني وقال:

- هذا المكان ليس لأمثالك، فابتعد.

- ألا تأخذك شفقة يا سيفاكاس رحمة بها.

فضحك الراعي في وجهي وصاح:

- هل أنا امرأة لتطالبني أن أكون شفوقاً؟ أنا رجل.

وفي لحظة كان في وسط المعمعة، وتبعته عن كثب، ولكن أنفاسي تقطعت، ولم أستطع اللحاق به، وكان الجميع قد داروا بالأرملة وحاصروها من كل جانب، وساد صمت رهيب. لم يكن يسمع فيه سوى تردد أنفاس الضحية.. ورسم مانولاكاس علامة الصليب على صدره، وتقدم إلى الأمام ورفع السكين في يده، فارتفعت صيحات الفرح من أفواه النساء فوق الجدران ورفعت الفتيات مناديلهن وحجبن بها وجوههن، ورفعت الأرملة عينيها، ورأت السكين فوق رأسها فصرخت

في هلع وتهالكت تحت جذع الشجرة وغاص رأسها بين كتفيها، وانسدل شعرها على الأرض.

ورسم مافراندوني علامة الصليب على صدره بدوره وصاح:

- إنني أطالب بعدالة السماء.

ولكننا سمعنا من ورائنا في هذه اللحظة صوتاً عالياً يصيح:

- اغمدوا أسلحتكم أيها القتلة.

فنظر الجميع حولهم في ذهول، ورفع مانولاكاس رأسه، ورأى زوربا واقفاً أمامه يلوح بيديه، ويصيح:

- ألا تخجلون من أنفسكم؟ أي الرجال أنتم؟ قرية برمتها لتقتل امرأة وحيدة؟ إنكم لتجلبون العار على كريت كلها!!

فصاح مافراندوني:

- لا شأن لك بهذا يا زوربا. هذا شأننا فلا تتدخل

ثم نظر إلى ابن أخيه وقال:

- مانولاكاس.. اضرب باسم المسيح والسيدة العذراء.

فأمسك مانولاكاس بالأرملة وطرحها أرضاً وركع على بطنها، ورفع السكين، ولكن زوربا انقض عليه، وأمسك بذراعه.. وحاول بيده التي لفها بمنديل أن ينتزع السكين من قبضة مانولاكاس.. وانتهزت الأرملة هذه الفرصة فنهضت على ركبتها ونظرت حولها باحثة عن ثغرة تفر منها، ولكن القرويين ضموا صفوفهم حولها في حلقة محكمة. حتى أولئك الذين كانوا يقفون فوق المقاعد ما إن رأوها تبحث عن منفذ حتى وثبوا إلى الأرض وسدوا الثغرات.

وفي هذه الأثناء، كان زوربا يناضل بخفة وعزم وصلابة، فأخذت أراقبه في قلقٍ من مكاني بالقرب من باب الكنيسة.. واحتقن وجه مانولاكاس غضباً، وتقدم سيفاكاس، ومعه عملاق آخر لمُساعدته. ولكن مانولاكاس أوقفهما بنظرة صارمة وصاح:

- ابتعدا.. لا يجب إن يتقدم أحد.

وهاجم زوربا بوحشية، ونطحه برأسه كالثور، وعض زوربا شفته، ولم ينطق بكلمة، كان مُمسكا بساعد غريمه بأصابع كالكلايب، بينما راح يتحرك يميناً ويساراً ليتجنب رأس مانولاكاس، وجُن جنون هذا الأخير، وألقى بنفسه على زوربا وتناول أذنه بأسنانه، وعضها بكل قوته حتى مزقها، وانفجر الدم منها، فصرخ زوربا. وتقدمت لأنقذه، ولكنه صاح:

- ابتعد يا أستاذ.. ابتعد.

وجمع قبضة يده، وسدد ضربة هائلة إلى الجزء الأسفل من بطن غريمه، فأفلت مانولاكاس الأذن من بين أسنانه على الفور، واحتقن وجهه احتقاناً شديداً، ودفعه زوربا بيده فألقاه أرضاً وانتزع السكين من يده، وقذف بها بعيداً فوق سور الكنيسة، ثُم تناول منديله، وأوقف به سيل الدم المتدفق من أذنه، ومسح العرق المتصبب على وجهه. وأجال البصر حوله.

كانت عيناه حمراوين منتفختين، صاح بالأرملة قائلاً:

- انهضي.. وتعالي معي.

فنهضت الأرملة، واستجمعت ما بقي لها من قوة لتنجو بحياتها، ولكنها لم تجد الفرصة لذلك، فقد انقض عليها مافراندوني الشيخ كالصقر، ولطمها فألقاها أرضاً، ولف شعرها الأسود الطويل حول ساعده، وبضربة واحدة من سكينه فصل رأسها عن جسدها. وصاح وهو يُلقي برأس ضحيته على عتبة الكنيسة:

- إنني أتحمل مسئولية هذا الإثم.

ورسم علامة الصليب على صدره.. ونظر زوربا خلفه ورأى المنظر الغريب فأمسك بشاربه وراح ينتف شعراته بقوة وعنف، ولحقت به وتأبطت ساعده، فنظر إليَّ، ورأيت دمعتين كبيرتين تتعلقان بأهدابه.. قال بصوت مُختنق:

- هلم بنا...

ولم يتناول زوربا طعاماً أو شراباً في تلك الليلة قال:

- إن في حلقي غصة ولا أستطيع أن أبتلع شيئاً.

وغسل أذنه بالماء البارد، وعصبها بقطعة قماش بللها بالعرق، أما أنا فقد تمددت على أرض الكوخ، وجعلت وجهي إلى الجدار وأطلقت العنان لدموعي، ولم أكن أفكر في شيء، إنما بكيت كما يبكي طفل غلبه الحزن والأسى..

وفجأة بدأ زوربا يُفكر بصوت مسموع.. صاح:

- إن كل ما يحدث في هذه الدنيا خطأ وظلم.. لماذا يموت الشباب ويبقى العجائز المُحطمون على قيد الحياة؟.. لماذا يموت الأطفال؟ كان لي مرة ابن اسمه ديمتري، وقد فقدته وهو في الثالثة من عمره وذلك ما لن أغفره للسماء.

وضرب الأرض بقبضة يده، فانفتح جُرح أذنه، وسال منها الدم؛ قلت له:

- صبراً يا زوربا. سأغسل لك الجرح وأضمده.

وغسلت الجرح بالعرق. وبللت قطعة من القطن بالبرتقال الذي بعثت به الأرملة إليَّ وعصبت الأذن. فهتف زوربا:

- آه.. إني أشم رائحة البرتقال، وأشعر كأنني في حديقة الأرملة..

وتنهد واستطرد قائلاً:

- كم سنة يجب أن تمر قبل أن تُنتج الأرض جسداً فاتنا كجسدها.. كُنت أنظر إليها وأقول: "ليتني في العشرين من عمري. وليت الدنيا تقفر من الرجال والنساء جميعاً فلا يبقى عليها سواي أنا وهذه المرأة فأولدها أولاداً. يملئون سطح الأرض.

وامتلأت عيناه بالدموع وقال:

- إنني لا أطيق التفكير في هذا الحادث.. يجب أن أرقى الجبل ثلاث أو أربع مرات هذه الليلة لكي تهدأ نفسي وأستطيع أن أنام.

واندفع إلى الخارج، وتوارى في الظلام.

أما أنا فقد تمددت في فراشي وأطفأت المصباح، وبدأت بطريقتي اللا إنسانية أن أنقل الحقائق إلى عالم التجريد، وأن أربطها بنواميس الطبيعة وشرائع الحياة حتى أدركت نتيجة مزعجة، هي أن ما حدث كان ضرورياً بل إنه للصالح العام وكان لا بد من حدوثه.

وغلبني النعاس فنمت، ولم أشعر بزوربا حين عاد أو حين خرج في صباح اليوم التالي، ولكني رأيته على سفح الجبل يصيح ويصرخ في وجوه العمال.. لا شيء يعجبه مما يفعلون، حتى لقد فصل ثلاثة منهم، وتناول معولاً وراح يضرب به الأرض ليمهد لإقامة أحد أعمدة السلك الهوائي، ثُم صعد إلى قمة الجبل، وتحدث للحطابين الذين يقومون بقطع الأخشاب، وثار عليهم

ثورة عارمة، وعاد في المساء إلى الكوخ مُتعباً منهوك القوى وجلس بجانبي لا ينطق بكلمة، وإذا تكلم فعن الفحم والخشب والسلك الهوائي.

وهممت مرة أن أتحدث عن الأرملة ولكنه وضع يده الغليظة على فمي وصاح: "صه". فصمت على استحياء، وقلت لنفسي: "إنه رجل بكل معاني الرجولة، رجل يبكي عندما يحزن ويضحك دون أن يدع للفلسفة أو المنطق سبيلاً إلى إفساد مرحه".

ومرت ثلاثة أو أربعة أيام على هذا النحو، قضاها زوربا في عمل متواصل، دون توقف من أجل طعام أو شراب، وذات مساء قُلت له إن بوبولينا لا تزال طريحة الفراش، وأن الطبيب لم يذهب لزيارتها وأنها تُردد اسمه دائماً في هذيانها فقال: "حسناً".

وخرج مُبكراً في صباح اليوم التالي، وذهب إلى القرية وعاد بعد قليل فسألته:

- هل رأيتها؟.. كيف حالها..

- ليس بها من شيء.. إنها ستموت.

وانطلق إلى عمله وعاد في المساء وكان يأكل، وتناول عصاه وخرج؛ فسألته:

- أذاهب أنت إلى القرية!

- كلا.. سأتريض قليلاً.

وسار في الطريق إلى القرية بخطى سريعة حازمة، وكُنت مُتعباً فعدت إلى فراشي، ورحت أستعرض بعض الذكريات القديمة والحديثة، وطافت أفكاري بأشياء كثيرة وعادت إلى زوربا..

وقلت لنفسي: "إذا التقى زوربا بمانولاكاس، فسوف يلقي هذا العملاق الكريتي بنفسه عليه.. لقد قيل لي أنه لم يبرح بيته في الأيام الأخيرة خجلا من الهزيمة التي نزلت به على يد زوربا، وإنه لا يكف عن القول بأنه سوف يُمزق زوربا بأسنانه بمجرد أن يقع بصره عليه. وقال لي أحد العمال أنه رآه يطوف حول الكوخ تحت جنح الظلام وهو مُدجج بالسلاح.. لا شك أنهما إذا التقيا الليلة فسوف تقع جريمة قتل.

ووثبت من الفراش وأسرعت إلى ثيابي فارتديتها وانطلقت إلى القرية، وكان الليل هادئاً ساكناً والجو يزخر برائحة البنفسج البري.. ووقع بصري على زوربا بعد قليل، وكان يمشي ببطء مشية المُتعب المكدود، ويتوقف بين الفينة والفينة، وينظر إلى النجوم ويسترق السمع، ثُم يعود إلى مواصلة السير وهو يدق الأرض بعصاه، واقترب من حديقة الأرملة.

انطلق من فوق أحد أشجار الحديقة، صوت بلبل يغرد بنغمات أصفى من ماء الينابيع.. واستمر البلبل يُغرد تغريداً جميلاً يأخذ بالألباب فتوقف زوربا عن السير وقد أخذته عذوبة التغريد، وفجأة انفرجت أعواد سور الحديقة وهدر صوت غاضب:

- أهذا أنت أيها الأحمق العجوز؟.. لقد وجدتك أخيراً.

فعرفت الصوت، وتجمد الدم في عروقي.. وتقدم زوربا رافعاً عصاه، وكُنت أرى على ضوء النجوم كل حركة من حركاته.. ووثب بين الأعواد عملاق ضخم الجسم، فمد زوربا عنقه وصاح:

- من أنت؟

- أنا مانولاكاس.

- امض في سبيلك.

- لماذا أذللتني، وجلبت لي العار؟.

- إنني لم أجلب لك العار يا مانولاكاس، فامض في سبيلك.. صحيح أنك شاب ضخم قوي، ولكن الحظ لم يكن في جانبك، والحظ أعمى كما تعلم.

فقال مانولاكاس وهو يعض بأسنانه:

- حظ أو لا حظ.. أعمى أو غير أعمى، يجب أن أمحو العار، وفي هذه الليلة بالذات.. هل معك سكين؟

- كلا.. معي عصا.

- اذهب وابحث عن سكين، وسأنتظرك هنا... اذهب.

ولكن زوربا لم يتحرك من مكانه فصاح مانولاكاس ساخراً:

- خائف أنت؟ قلت لك اذهب.

- وماذا أفعل بالسكين؟! إنني أذكر ما حدث أمام الكنيسة، كان معك سكين وقتئذ، ولم يكن معي شيء، ومع ذلك انتصرت

فزمجر مانولاكاس في غضب:

- أتحاول إثارتي؟ لقد اخترت أسوأ الأوقات لسخريتك. هل نسيت أنني مُسلح وأنت أعزل؟ ابحث لنفسك عن سكين أيها المقدوني القذر، وسنرى بعد ذلك أينا الأفضل.

فرفع زوربا يده وألقى بالعصا، وسمعت صوت سقوطها بين الأعواد. وصاح زوربا:

- ألق بالسكين.

وكنت قد تسللت نحوهما، فرأيت السكين يتألق في ضوء النجوم قبل أن يغيب بين أعواد الغاب.. وبصق زوربا في يده وصاح وهو يثب في الهواء: "تعال".

ولكني وثبت بينهما قبل أن يلتحما، وصحت بهما:

- قفا.. أنت يا مانولاكاس، وأنت يا زوربا تعاليا.. هذا عار عليكما.

فتقدم الغريمان مني وهما يسيران في بطء، فتناولت اليد اليمنى لكل منهما، وقلت:

- تصافحا.. كلاكما طيب القلب، وكلاكما شجاع.. ويجب أن تصلحا ما بينكما.

فقال مانولاكاس وهو يحاول أن يجذب يده.

- لقد أهانني.

- لا أحد يستطيع إهانتك بهذه السهولة.. القرية كلها تعرف أنك رجل شجاع، فانس ما حدث أمام الكنيسة في تلك الساعة المنحوسة.. إن ما كان قد كان، ولا تنس ـن زوربا غريب عن هذه الجزيرة. إنه مقدوني، وعار علينا نحن الكريتيون أن نرفع أيدينا ضد ضيف بلدنا.. تعال أعطني يدك.. هذه هي الشهامة.. وهلم معنا إلى الكوخ لندعم صداقتنا بكأس نبيذ وقطعة من الشواء.

وأحطت خصره بساعدي وانتحيت به جانبا وهمست في أذنه:

- لا تنس أنه رجل مُتقدم في السن، وعار على شاب قوي مثلك أن يُهاجم رجلاً في مثل سنه.

فلان مانولاكاس قليلا وقال:

- حسنا... إكراماً لك فقط.

اقترب من زوربا وبسط له يده وهو يقول:

- تعال أيها الصديق، لقد انتهى كل شيء.. أعطني يدك

فقال زوربا:

- أنت أكلت أذني، ومع ذلك هاك يدي.

وشد كل منهما على يد الآخر بقوة وعنف حتى خفت أن يتلاحما من جديد، وفي الطريق إلى الكوخ، سرت بينهما وقلت لأغير مجرى الحديث:

- سيكون المحصول وفيراً هذا العام فيما أعتقد، فقد هطلت أمطار غزيرة.

فلم يجيبا، وأدركت أنه لا يزال هناك شر بداخل صدورهما، ووضعت كل أملي في الخمر لعلها تُصلح بينهما. وجلسنا على حجر أمام الكوخ، وأحضر زوربا ثلاثة أقداح وبعض الطعام، فقلت وأنا أرفع قدحي:

- نخب صحتك يا مانولاكاس.. نخب صحتك يا زوربا.

فسكب مانولاكاس بضع قطرات من نبيذ على الأرض وقال بصوت رصين:

- يسيل دمي كهذا النبيذ إذا أنا رفعت يدي في وجهك يا زوربا.

فحذا زوربا حذوه، وسكب قطرة من النبيذ على الأرض وقال:

- يسيل دمي كهذا النبيذ إذا لم أكن قد نسيت فعلاً كيف قضمت أذني.

الفصل الثامن عشر

جلس زوربا على حافة فراشه في الفجر وأيقظني بقوله:

- هل أنت نائم يا أستاذ؟

- ماذا حدث يا زوربا؟

لقد رأيت حلماً مضحكاً، وأعتقد أننا سنقوم برحلة، في وقت قريب.. أصغ إلي.. إنني رأيت فيما يرى النائم سفينة كبيرة تهم بالإبحار، فجئت من القرية مسرعاً ولحقت بها. وكنت أحمل في يدي ببغاء. وجاء ربان السفينة وسألني: "أين تذكرتك؟"؛ فقلت وأنا أخرج من جيبي حزمة من الأوراق المالية:

- كم ثمنها؟

- ألف درخمة.

- ألا تكفي ثمانمائة درخمة!

- كلا... ألف درخمة بالتمام.

- معي ثمانمائة درخمة فقط وفي استطاعتك أن تأخذها.

- بل ألف درخمة.. أو تغادر السفينة.

- أصغ إلي يا كابتن.. أنصحك بقبول الثمانمائة درخمة لأنك إذا رفضت، فإنني أستيقظ من النوم فلا تنال شيئاً

وانفجر زوربا ضاحكاً وقال في دهشة:

- إن الإنسان آلة عجيبة.. تطعمها خبزاً ونبيذاً وسمكاً، فتعطيك ضحكاً وأحلاماً ومناظر جميلة.

ثُم وثب من الفراش فجأة وقال في قلق:

- ولكن لماذا الببغاء؟ ما معنى أن أصحب معي ببغاءً؟ أخشى أيها الصديق أن...

ولم يُتم عبارته فقد فتح الباب بعنف ودخل رسول قصير القامة أحمر الشعر، وقال وهو يلهث:

- بحق السماء.. إن المرأة المسكينة تصرخ في طلب طبيب وتقول أنها على شفا الموت وأن وزر موتها يقع عليكما.

فخجلت، كانت فجيعتنا في الأرملة قد أنستنا صديقتنا القديمة تماماً، قال الرسول:

- إن المرأة المسكينة تسعل بشدة، وسعلتها تهز جدران البيت.

فتناولت ورقة كتبت عليها رسالة وقلت للرسول:

- اذهب بهذه الرسالة إلى الطبيب ولا تدعه حتى يُرافقك إلى بيتها ويقوم بفحصها أمامك.

وانصرف الرسول، وارتدى زوربا ثيابه على عجل فقلت له:

- صبراً لحظة.. فسأرافقك.

- إنني على عجل.

وأسرع بالخروج.

وبعد قليل، كنت في طريقي إلى القرية، ورآني العم أناجنوستي وكان جالساً بباب بيته فهتف:

- أية مصادفة سعيدة جاءت بك في مثل هذه الساعة المُبكرة؟

ولكنه قرأ دلائل القلق في وجهي، وأدرك ما هنالك وقال:

- عجل يا بني، فلست واثقاً من أنك ستجدها على قيد الحياة.

كانوا قد وضعوا فراشها في وسط الغرفة، ونقلوا الببغاء إلى مكانها المألوف فوق رأس صاحبته، وكانت الببغاء تدور بعينيها فيما حولها ولا تنطق وكأنها تدرك ما هنالك.. وكانت العجوز المسكينة تئن وتتوجع وتضرب الأغطية بيديها وتحاول التخلص من شعورها بالاختناق.. ورأيتها بلا مساحيق أو دهون، شاحبة اللون، متورمة الوجه.. تنبعث منها رائحة العرق واللحم الذي يوشك على التحلل.. وكان منظر حذائها تحت فراشها أشد إيلاماً للنفس من منظر صاحبة الحذاء نفسها.. وجلس زوربا بجوار الفراش، ونظر إلى الحذاء، ولم يحول عينيه عنه، وراح يعض شفتيه ليغالب دموعه.

وكانت المرأة المسكينة تتنفس بصعوبة، فتناول زوربا قبعتها العريضة المحلاة بالورود وجعل يروح بها فوق وجهها كما لو كان يحاول إشعال النار في قطعة فحم أدركها البلل.

وفتحت المرأة عينيها ونظرت حولها في هلع، ولكنها لم تر شيئاً في الظلام، بل ولم تر زوربا وهو يُحرك القبعة فوق وجهها.. ونشبت المسكينة أظافرها في الوسادة المُبللة بالدموع والعرق واللعاب وصاحت:

- لا أريد أن أموت.. لا أريد أن أموت.

ولكن ندابتان من القرية سمعتا عن حالها فجاءتا على الفور وتسللتا إلى داخل الغُرفة، وبعد قليل، جاء شابان وأطلا على المرأة المريضة وتبادلا الغمزات وانصرفا.

ولم تمض بضع دقائق حتى سمعنا جلبة الدجاج في الخارج فقالت إحدى الندابتين للأخرى:

- أرأيت أن الشابين يُعجلان النهاية، وها هما يسرقان الدجاج، إن مساكين القرية جميعاً يملئون فناء الدار في انتظار النهاية لكي ينهبوا كل شيء...

ثُم التفتت إلى المرأة المحتضرة وغمغمت في ضجر:

- عجلي بالرحيل أيتها الصديقة، حتى نأخذ نصيبنا كالآخرين.

فقالت الندابة الأخرى:

- يبدو أن هؤلاء الفتيان على حق فلطالما قالت لي أمي: "إذا أردت أن تأكلي شيئاً فاخطفيه، وإذا أردت اقتناء شيء فاسرقيه"، وعلينا الآن أن نندبها بسرعة، ثُم نحمل ما تصل إليه أيدينا من الأرز والسكر والأواني، لكي نُبارك ذكراها بعد موتها.. إنها لا أهل لها ولا أولاد.. فمن ذا الذي سيرث دجاجها وأرانبها؟ ومن ذا الذي سيشرب نبيذها ويرث حانوتها؟ كل هذا سيكون مُباحاً للجميع ويجب أن نأخذ منه نصيبنا..

وفي هذه اللحظة، تنهدت المريضة وراحت تهذي فقالت إحدى الندابتين:

- قد آن الأوان، فلنتناول مناديلنا ونشرع في عملنا.

فأجابت الأخرى:

- ألا تخافين الله.. كيف نندبها ولم تلفظ أنفاسها الأخيرة؟

وهنا هتفت مدام هورتنس بصوت خافت:

- لا أريد أن أموت.

فانحنى زوربا فوقها، ورفع خصلة من الشعر سقطت على جبينها وقال والدموع في عينيه:

- لا تخافي أيتها العزيزة.. إنني هُنا.. أنا زوربا.

ولكنها لم تره ولم تسمعه، وضربت الأغطية بقدمها بقوة، وأطلقت صرخة قصيرة ثاقبة، وسكنت حركتها، وعلى الفور بدأت الندابتان عملهما المقيت، فمد زوربا يده، وتناول قفص الببغاء، وغادرنا المكان، وعندما جاء كوندومانوليو وناظر مدرسة القرية لجرد مخلفات المتوفاة، لم يجدا سوى الجثة مُسجاة فوق أحد الأبواب. لقد نهب فقراء القرية كل شيء، حتى الأبواب والنوافذ.

الفصل التاسع عشر

كان اليوم الأول من شهر مايو من الأيام الخالدة التي لن أنساها ما حييت؛ ففي ذلك اليوم كان كل شيء مُعداً للبدء في استغلال أخشاب الغابة.. الأعمدة قائمة، والسلك الهوائي يلمع تحت أشعة الشمس، وجذوع الأشجار مُكدسة فوق قمة الجبل في انتظار الإشارة ببدء العمل، وراية يونانية تخفق فوق الجبل، وأخرى تخفق على الشاطئ عند الخليج الذي سيتلقى جذوع الشجر تمهيداً لشحنها في السفن، وأمام الكوخ برميل كبير مليء بالنبيذ، وعلى مقربة منه عامل يشوي خروفا سمينا، فقد كان من المتفق عليه أن يقدم الطعام والشراب للمدعوين، عقب الاحتفال بتدشين المشروع وافتتاحه.

والواقع أن زوربا أعد العدة لكل شيء، حتى الببغاء كان لها نصيبها في الاحتفال، فقد وضع زوربا قفصها على صخرة مرتفعة بالقرب من أول عمود وارتدى أفضل ثيابه، وراح يستقبل أعيان القرية وكبراءها، ويوضح لهم طريقة عمل الخط الهوائي، وكيف سيعم الخير المنطقة كلها نتيجة للمشروع.. قال:

- إنه عمل هندسي فذ، أهم ما فيه هو معرفة الانحدار المناسب للخط الهوائي، وقد قضيت عدة شهور في التفكير في هذه المعضلة ولكن دون جدوى، وأيقنت آخر الأمر أن المُعضلة لن تُحل إلا بعون من عند الله. وذات ليلة حدثت المعجزة، فقد رأيت فيما يرى النائم سيدة مُتشحة بالسواد تحمل في يدها نموذجاً للخط الهوائي في حجم الكف، قالت لي: "أصغ إلي يا زوربا، أنا السيدة العذراء، وقد جئتك بتصميم المشروع.. هو ذا حساب المنحدر الذي تبحث عنه، وها هي بركتي"، واختفت. فاستيقظت مذعوراً، وأسرعت إلى المكان الذي كنت أختبر فيه نموذجي للمشروع، ورأيت المعجزة، كان السلك

موضوعاً بالزاوية المناسبة، وكانت تنبعث منه رائحة البخور، مما يدل على أن يد السيدة العذراء قد لمسته.

وهمَّ كوندومانوليو بأن يفتح فمه ليلقي سؤالاً، ولكنه رأى خمسة من الرهبان يمتطون جيادهم ويهبطون على سفح الجبل، وراهباً سادساً يتقدمهم حاملاً صليباً ضخماً من الخشب.

وشرع الرهبان يدورون بالأعمدة ويُرتلون ويُطلقون البخور بينما وقف حشد كبير من القرويين ينظرون في خشوع وينتظرون، وكان من المُقرر أن تجرى التجربة على ثلاثة جذوع، تيمنا بالثالوث المقدس: الأب والابن والروح القدس.. ووثب زوربا للعمود الأول وجذب حبلاً، فارتفعت الراية إلى قمة العمود، وكانت هذه هي الإشارة المُتفق عليها مع العمال فوق قمة الجبل لإرسال الجذع الأول، وتحولت الأنظار جميعاً إلى قمة الجبل وهتف أحد الرهبان:

- "باسم الأب".

ومن المستحيل وصف ما حدث، فقد نزلت الكارثة كالصاعقة، وكدنا لا نجد الوقت الكافي للنجاة بأنفسنا، فقد ترنح البناء الخشبي كله، وانحدر جذع الشجرة كشيطان هائل مُتمرد. فانبعث منه الشرر، وتطايرت أجزاء منه في الهواء، ولما وصل للأرض بعد بضع ثوان، كان مُجرد كتلة خشبية مُحترقة، ودب الذعر بقلوب الرهبان، وراحوا يرسمون علامة الصليب على صدورهم ويتمتمون. فقال زوربا:

- هكذا يحدث دائماً في أول تجربة، ولكني واثق من أن الجهاز سيكون أكثر انتظاما في التجربة الثانية.

ورُفعت الراية للمرة الثانية، وهتف أكبر الرهبان سناً!!

- "باسم الابن".

وانحدر الجذع الثاني، وهجم علينا كالوحش لأنه تعثر في الطريق ودار حول نفسه وسقط من حاله، وعض زوربا شاربه وقال:

- يا للشيطان. هذا المنحدر اللعين ليس كما يجب أن يكون.

ورفع الراية للمرة الثانية، وفي هذه المرة أسرع الرهبان بالاحتماء وراء بغالهم، وصاح كبيرهم: .

- "باسم الروح القُدس".

وكان الجذع الثالث ضخماً جداً، ولم يكد ينطلق من قمة الجبل حتى سمعنا ضوضاء شديدة فصاح زوربا وهو يعدو:

- انبطحوا على الأرض بحق السماء.

فألقى الرهبان بأنفسهم على الأرض، وأطلق القرويون سيقانهم للريح، وكان جذع الشجرة قد وثب وثبة واحدة، وسقط على الأرض وتدحرج وغاص في ماء البحر قبل أن نُدرك تماماً ما حدث، واهتزت الأعمدة التي يقوم البناء الخشبي عليها بشدة، ومال بعضها بطريقة خطرة، وصاح زوربا:

- لا تنزعجوا.. أنا واثق أن الجهاز سيعمل الآن بانتظام، فلنجذب مرة رابعة.

ورفع الراية وصاح الراهب وهو يعدو نحو الصخور:

- "باسم السيدة العذراء".

وانحدر الجذع الرابع بقوة ثم دار حول نفسه وسمع القوم دوياً شديداً، وسقطت الأعمدة جميعاً، وانهار البناء الخشبي كله في طرفة عين، وأصابت شظية مُتطايرة أحد الرهبان فجرحت فخذه ومرت أخرى بالقرب من عين راهب آخر، وتوارى القرويون عن الأبصار، وحمل الرهبان صليبهم الخشبي وجمعوا بغالهم،

وبدءوا يتقهقرون في غير نظام، حتى العامل الذي كان يُشرف على شي الخروف تولاه الذعر ولاذ بالفرار، وترك الخروف طعاماً للنيران.

صاح زوربا في جزع : "الخروف يحترق".

وذهب لإنقاذه، ثُم جلس بجانبي، وكان الشاطئ قد أقفر تماماً، فنظر إلي زوربا في تردد لم يكن يعرف كيف كان وقع الكارثة علي، ولا كيف يُمكن أن تنتهي هذه المغامرة، وتناول السكين وقطع شريحة من لحم الخروف وتذوقها وقال:

- هكذا يجب إن يكون الشواء. هل لك في قطعة؟

- إنني جائع.. هات الخبز والنبيذ ودعنا نأكل..

وأكلنا حتى أتينا على الخروف، وشربنا من النبيذ الكريتي الجيد حتى ارتوينا وترنحت الأرض تحت أقدامنا كأنها سفينة في عرض المحيط، وبدت لنا الحياة أقل ثقلاً وأوفر بهجة، ونهضت واقفاً وصحت بزوربا:

- زوربا.. علمني كيف أرقص.

فوثب واقفاً وقد أشرق وجهه وهتف قائلاً:

- أتريد حقاً أن ترقص؟.. هذا أحسن.. تعال.

- لقد تغيرت حياتي يا زوربا.. هلم.

فخلع حذاءه وقال:

- انظر إلى قدمي.. انظر.

ومس الأرض بأصابع قدمه بخفة، ثُم خطا بالقدم الأخرى للأمام، وكرر هاتين الحركتين بسرعة حتى اختلطتا، ورددت الأرض حركة القدمين وكأنها طبلة، وألقى زوربا بيده على كتفي وقال:

- هلم، سنرقص معاً.

وراح يُدربني على الرقص ويُصحح أخطائي في صبر وأناة ودعة حتى تشجعت، وأحسست كأن قلبي قد نبت له جناحان كالطير.

- برافو.. أنت أعجوبة.

وراح يُصفق بيديه لينظم خطواتي وحركة قدمي، ويصيح:

- برافو، إلى الجحيم بالكتب والأوراق، إلى الجحيم بالمناجم والأرباح.. ها أنت ذا يا بُني قد تعلمت لغتي، وسوف نروي لبعضنا أشياء كثيرة.

وجعل يثب على الحصى بقدميه العاريتين ويصفق بيديه، قال:

- عندي أشياء كثيرة أريد أن أقولها لك، إنني لم أحب أحداً كما أحببتك، وهناك مئات الأشياء أود أن أقولها لك ولكن لساني لا يسعفني ولذلك سأرقصها لك. انظر.

ووثب في الهواء وتحول ساعداه وساقاه إلى أجنحة، وبدا، والبحر من ورائه، أشبه بملاك عجوز متمرد.. لقد قلت لك ما أريد قوله، ورقصت ما شئت أن أرقص.. وحين شهدت زوربا وهو يرقص، أدركت لأول مرة مدى الجهد الذي يبذله الإنسان للتغلب على ثقله، وأعجبت بصبر زوربا وخفته واعتداده بنفسه..

واستيقظت مُبكراً في اليوم التالي، فخرجت للشاطئ وسرت في الطريق إلى القرية، كان قلبي يثب بين ضلوعي، وكنت أشعر بسعادة لم يسبق أن شعرت بمثلها في حياتي.. كانت سعادة غير عادية، ليس لها ما يُبررها، بل ضد كل ما يُمكن أن يُبررها، فلقد فقدت كُل شيء: ثروتي، ورجالي، وعرباتي، والخط الهوائي.. وأنشأت ميناءً صغيراً لا أملك الآن ما أشحنه منه.

وفي هذا الوقت الذي فقدت فيه كل شيء، غمر قلبي هذا الشعور غير المُنتظر بالخلاص، إنها لمتعة أية متعة، أن يختبر الإنسان شجاعته ومدى قدرته على الاحتمال حين تسوء أموره وتتقطع به الأسباب!!

وعدت إلى الكوخ حول الظهر وأنا مُتعب مُنهك القوى، ولكن راضي النفس، واستلقيت على فراشي، وغلبني النعاس فنمت، ورأيت فيما يرى النائم أنني أسير وحدي في أحد شوارع أثينا، وأن الشوارع مقفرة، والحوانيت مُغلقة، وبينما أنا أمر بكنيسة (كابذيكاريا)، إذ بي ألتقي بصديقي ستافريداكي، الغائب في القوقاز؛ فسألني بأنفاس لاهثة:

- ماذا تفعل هذه الأيام؟.. إنني لم أرك منذ قرون.. قابلني الليلة لنتجاذب أطراف الحديث.

- أين؟

- في مقهى (نافورة الجنة).

- حسنا.. سأذهب إلى هناك.

فقال مُعاتباً:

- أنت تقول ذلك ولكنك لا تذهب.

- بل سأذهب، وهاك يدي.

وأمسك بيدي، وهالني أن شعرت بأن يده باردة كالثلج؛ فنهضت من نومي مذعوراً، واتجهت ببصري نحو الشرق، نحو القوقاز.. لا بد أن يكون صديقي هناك في خطر.

انتهى كل شيء، وجمع زوربا الأسلاك والأدوات والعربات والأخشاب وقطع الحديد في كومة كبيرة على الشاطئ استعداداً لشحنها على إحدى السفن. قُلت:

- إنني أقدم كل هذه الأشياء هدية لك يا زوربا؛ فخذها، وأتمنى لك حظاً سعيداً.

فابتلع زوربا لعابه بصعوبة كمن في حلقه غصة وغمغم قائلاً:

- هل سنفترق؟ إلى أين ستذهب؟

- ربما ذهبت إلى أثينا.. هناك كُتب يجب أن أقرأها وأخرى يجب أن أكتبها.

- ألم تتعلم بعد أشياء أفضل من القراءة والكتابة؟

- بل تعلمت الكثير يا زوربا، والفضل لك.

- وماذا سأفعل بدونك؟

- لا تحزن يا زوربا؛ فسوف نلتقي مرة أخرى.

وجلس زوربا على الأرض، وأسند ظهره إلى جدار الكوخ، وراح يشرب الكأس تلو الكأس، دون أن ينطق بكلمة.

قلت لنفسي:

- يجب أن أنظر إليه جيداً حتى تنطبع صورته في ذهني لأننا لن نلتقي بعد ذلك أبداً.. أبداً.

وودت أن ألقي برأسه على كتفي وأبكي، ولكني خجلت، ثم حاولت أن أضحك لأخفي تأثري وانفعالي، ففشلت، وأحسست بغصة في حلقي.

نظرت إليه وهو يمط عنقه الطويل الشبيه بأعناق الطيور الجارحة ليشرب في صمت، وعجبت للحياة، إن الناس يتقابلون ويفترقون، ويحاول الإنسان أن يحتفظ في ذهنه بصورة لوجه الشخص الذي أحبه، أو لحركة من حركاته، ثُم تمضي الأيام والسنين فإذا هو لا يذكر حتى لون عينيه..

واستمر زوربا يشرب في صمت، دون أن يُبدي حراكاً وخُيل إليَّ أنه ينصت إلى وقع أقدام تقترب في الظلام، أو أقدام تنسحب من أعماق كيانه.

- فيم تفكر يا زوربا؟

- فيم أفكر؟ إنني لا أفكر في شيء لا أفكر في شيء على الإطلاق.

- إذاً فاعزف شيئا على السانتوري.

- ألم أقل لك إن العزف على السانتوري يتطلب البهجة والمرح والقلب السعيد؟ قد أستطيع أن أعزف بعد شهر أو شهرين، ويومئذ سوف أعزف قصة شخصين افترقا إلى الأبد.

صحت في ذعر: "إلى الأبد".

والواقع أنني همست بهاتين الكلمتين لنفسي، ولكني لم أتوقع أن يقالا بصوت مسموع؛ فقال زوربا وهو يبتلع لعابه بصعوبة:

- نعم.. إلى الأبد، إن ما ذكرته الآن عن احتمال لقائنا يوماً ما، هو من قبيل الكلام الذي يقال لإنسان مريض لتشجيعه على احتمال آلامه، وأنا لا أقول هذا الكلام ولا أريده.. هل نحن ضعاف كالنساء لكي نحتاج إلى عبارات التشجيع والمواساة؟ نعم.. إننا سنفترق.. إلى الأبد.

صمت لحظة ثم استطرد:

- إن لك أن تأوي لفراشك يا صديقي، إذ يجب أن تستيقظ في الفجر إذا شئت أن تستقل السفينة إلى كانديا.. طابت ليلتك.

- ليست بي الرغبة إلى النعاس يا زوربا، سأبقى معك، فهذه ليلتنا الأخيرة معاً.

- ولهذا يجب أن ينتهي الأمر بسرعة.. طابت ليلتك.

وخرج إلى الشاطئ دون أن يُلقي وراءه بنظرة واحدة، وهناك تمدد فوق الحصى وأدار وجهه إلى البحر، ولم أره بعد ذلك أبداً.. فقد رحلت في الفجر دون أن يقع عليه بصري، وربما كان قد اختبأ في مكان ما ليرقبني حين أرحل حتى لا نضطر لتبادل كلمات الوداع المؤلمة والتلويح بالأيدي والمناديل، كان فراقنا قاطعاً كالسيف.

وفي كانديا تسلمت برقية أرسلت رعدة في جسدي، فقد كنت أتوقع ما جاء فيها، كانت تتضمن سطراً واحداً: "ستافريداكي أصيب بالتهاب رئوي وتوفي أمس".

ومرت خمسة أعوام... خمسة أعوام طويلة مضنية حافلة بالآلام والأهوال، تغيرت خلالها الحدود، فاتسعت دول وانكمشت دول أخرى. وهلك ملايين الناس، وخلال السنوات الثلاث الأولى، تلقيت بضع بطاقات من زوربا، قال في إحداها أنه وصل إلى دير مونت آتوس، وأنه لا أمل في الحصول على عمل هناك، لأن رهبان الدير من البُخل والتقتير بحيث يسلخون براغيثهم، وقال في بطاقته الثانية، أنه تعب من حمل الببغاء معه لكل مكان يذهب إليه، وأنه أهداه لأحد الرهبان واستحلفه أن يُعلمه الصلاة.

وقال في البطاقة الثالثة أنه لا يزال على قيد الحياة، وأنه يعمل في مناجم رومانيا ويأكل عصيدة الذرة ويشرب الفودكا، ومُنذ عامين بعث إليَّ برسالة من سيبيريا يقول فيها: "البرد هُنا مُخيف، ولذلك اضطررت إلى الزواج، وإذا قلبت هذه البطاقة، طالعك وجه زوجتي، إنها مُتضخمة قليلاً، والسبب أنها ستضع زوربا صغيراً، إنني أقف إلى جانبها مُرتدياً الثوب الذي أهديتني إياه، أما خاتم الزواج الذي في إصبعي فإنه خاتم بوبولينا المسكينة.. الزوجة الجديدة تدعى ليوبا، وقد أحضرت لي زوجتي فرساً وسبعة خنازير وطفلين من زوجها الأول. إنني أعيش كالباشاوات؛ فقد وجدت منجم نحاس في أحد الجبال، كما وجدت رأسمالياً لتمويله"

وانقطعت أنباء زوربا بعد ذلك، إلى أن وردت لي أخيراً رسالة من قرية سكويلي في سيبيريا مكتوبة باللغة الألمانية بخط لا أعرفه وقد جاء بها:

"أكتب إليك، أنا ناظر مدرسة هذه القرية، لكي أنهي إليك نبأ وفاة أليكسيس زوربا صاحب منجم نحاس هُنا الذي توفاه الله في الساعة السادسة من مساء يوم الأحد الماضي، وقد دعاني الفقيد قبل موته، وقال لي: أصغ إلي أيها الناظر.. إن لي صديقاً في اليونان فمتى مت، فاكتب إليه وقل له أنني احتفظت بجميع حواسي حتى آخر لحظة، وإنني غير آسف على شيء فعلته، وإنني أرجو له أن يعود إلى صوابه، وأصغ أيضاً أيها الناظر.. إذا جاء قس للصلاة على جثماني فاطرده، وبسرعة، وقل له أنني أريد لعناته لا صلواته.

لقد فعلت أشياء كثيرة في حياتي.. ولكني لم أفعل كل ما كنت أريد أن أفعله، إن الرجال الذين على شاكلتي يجب أن يعيشوا ألف عام طاب مساؤك، تلك كانت آخر كلماته، وقد جلس بعدها في فراشه، ثُم حاول النهوض، فأسرعنا إليه: أنا وزوجته، وبعض الجيران، لكي نمنعه، ولكنه نحانا جميعاً بخشونة ووثب من الفراش وسار إلى النافذة، وتعلق بها، وأرسل بصره إلى الجبل، وفتح عينيه وجعل يضحك، ومات وهو واقف أمام النافذة وأظافره مغروسة في إطارها، وقد طلبت مني

زوجته (ليوبا) أن أكتب إليك وأبلغك تحيتها وأقول لك أن الفقيد كان يتحدث عنك كثيراً، وأنه أوصى لك بالسانتوري لكي تذكره به، والأرملة ترجوك إذا مررت بهذه القرية أن تنزل في ضيافتها لكي تأخذ السانتوري معك عند رحيلك"

الفهرس

مقدمة ٥
الفصل الأول ٩
الفصل الثاني ٢٢
الفصل الثالث ٣٨
الفصل الرابع ٥٠
الفصل الخامس ٦٥
الفصل السادس ٧٢
الفصل السابع ٨٧
الفصل الثامن ٩٦
الفصل التاسع ١١٢
الفصل العاشر ١٢١
الفصل الحادي عشر ١٣٢
الفصل الثاني عشر ١٣٩
الفصل الثالث عشر ١٤٦
الفصل الرابع عشر ١٥٥
الفصل الخامس عشر ١٥٩
الفصل السادس عشر ١٦٣
الفصل السابع عشر ١٧١
الفصل الثامن عشر ١٨٤
الفصل التاسع عشر ١٨٩